



المؤلف

د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي

هذا الكتاب

لأن الإنسان محور هذا الكون ، والمسئول عن تنمية الحياة على الأرض ، ولأنه مخلوق حباه الله سبحانه بكثير من الهبات ومظاهر التكريم ، لهذا وذاك في ضوء الآيات التي تحدد مسئولية الإنسان كان طرح السؤال : هل الإنسان مكرم أو مسئول ؟ ومنه تولدت أسئلة أخرى مثل : ما الصلة بين التكريم والمسئولية ؟ وما مظاهر هذه المسئولية وتبعاتها ؟ وهل يختلف أن نبداً بالإنسان مكرماً عنه مسئولاً ؟

وجاءت بحوث هذا الكتاب تحاول أن تجيب على هذه الأسئلة ، مستعينة في نسقها وتسلسلها بمنهج يجمع بين النقل والعقل ، النقل في دلالاته الصريحة وفي فهوم المفسرين ، والعقل في جهود العلماء ومحاولاتهم تفسير موقف الإنسان وبناء علوم حوله .

ومهمة هذا الكتاب بالدرجة الأولى هي أن تتحرك همة الإنسان نحو مسئوليته في عمارة الأرض والقيام بمهام الخلافة ، وذلك بعد أن يتبين - من خلال طرحنا لقضايا البحث - أن وجوده يتحقق بقدر تحمله لمسئوليته وأن ما كرمه الله به عون له عليها .

مراجعة هيئة كبار علماء

المجمع الإسلامي للشريعة
لتعاون العالمين بالكتاب والسنة المحمدية

مكتبة أسئلة العصرية

إسلاميات

د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي

إسلاميات

حقيقة الإنسان بين المسئولية والتكريم

المؤلف

حقيقة الإنسان

بين المسئولية والتكريم

تأليف

دكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي

أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة



إسلاميات

مكتبة السنة النبوية

٢٥

حقيقة الإنسان بين المسؤولية والتكريم

تأليف

دكتور أبو اليزيد أبو زيد العجمي

أستاذ الفلسفة الإسلامية المساعد

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

المؤسسة العربية الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
٩٠١٥٥٥



سلسلة
مكتبة السنة النبوية
إسلاميات

سلسلة كتب إسلامية دورية
تعرف المسلم بكل أمور دينه

○ عقيدة ○ فقه ○ تفسير
○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة
إسلامية ○ مشاكل العصر

بأسلوب ميسر يفهمه العامة .
ويسعد به الخاصة

مراجعة هيئة كبار علماء
الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

حقوق الطبع محفوظة للناس

طبعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية
بالعباسية - المكتبات ١٠، ١٦ شارع كامل صدق الفجالة ٤ شارع الإسماعيل بمبشيه الكبرى
روكي مصر الجديدة - القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ - ٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ج . م . ع .



المقدمة

المقدمة

لم يحظ مخلوق من مخلوقات الله بعناية مثلاً حظى الإنسان ، فقد أرسل الله الرسل إليه ، وأنزلت الكتب تحمل هدى السماء إلى الأرض من أجل إصلاح هذا الإنسان ، وبصلاحه يصلح كثير من مخلوقات الله في هذا الكون .

ولا عجب فالإنسان هو الكائن الذى كرمه الله بالعقل ليعي ويتفهم الأمور ، ويستمتع بالحياة وفق منهج الله الذى حملته تعاليم الله إلى الإنسان . وقد انطلق الإنسان بنشاط عقله انطلاقات تركز معظمها حول ذاته هو ، ووجد من جراء هذا ما يسمى بالعلوم الإنسانية ، وبالعلوم الخادمة للإنسان ، وكل هذا لا ضير ولا غبار عليه ، لو أن هذا الإنسان أدى للنعم التى أحيط بها حق المنعم فيها ، فتفهم دوره ، ولماذا خلق بهذه الصورة ، وكيف سخرت له كل الكائنات حوله ، لينطلق من هذه الفهوم وماتستلزمه إلى ممارسة حقيقية لوظيفته في هذا الوجود . وهنا تصبح الأمور على وجهها الصحيح ، فيسعد هو وتسعد به الحياة .

لكن واقع الإنسان يختلف عن هذا التصور ، فقد فهم نصف الحقيقة وتغابى عن نصفها الآخر ، فهم أنه مخلوق ذلت له الصعاب ، وهيئت له الحياة ، وبدلاً من أن يفهم بعقله أنه مسئول عن هذا التكريم ، فهم أن التكريم ينصب على ذاته ، فراح يعصى الله فى ملكه ، وبالطاقات التى منحها الله له ، الأمر الذى استجلب عتاب الله له فى القرآن على



معاصيه هذه ، مذكراً إياه بخلقه من عدم ، وحفظه في بطن أمه ،
وتعهدده بالعناية في كل زمان ومكان .

ولعل الحيرة التي يعيشها الإنسان المعاصر على هذه الأرض ، وقد
تقدمت العلوم وارتقت المعارف حول الإنسان وقهره للطبيعة ، وقد
امتلك من وسائل العيش المادى ما يكفل الحياة السعيدة بمقياس
الماديين ، أقول لعل الحيرة التي يعيشها الإنسان وهو بحالته هذه سببها
أنه قلب الأمر ، وغير وجه القضية . فاعتبر بإنسانيته كما زعمها ، وطفى
بعقله حتى عبد هواه ، وتاه في ظلمات الانتصار على الطبيعة ، ووهم
أنه بذلك الإنسان الذي أراده الله للأمانة ، وللخلافة ، والعبادة ،
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا الوهم الذي عاش فيه زمناً
قطعت حجبه حيرة وقلق وتبرم بالحياة ، فمن هداه الله إلى الإسلام وجد
ضالته ، وعرف طريقه ، وبدأ مسئوليته عن هذه الحياة ، فكان شقاؤه
هذا سعادة ، وعرقه هذا بلسماً ، وأما الذين على قلوبهم رين ، وعلى
أعينهم غشاوة فلا يزالون في الحيرة يتقلبون ، يعانون من الضنك الذي
يلزم من يعوض عن ذكر الله كما أخبر سبحانه في كتابه الكريم (١) .

وإذا كان واجب الإنسان - وبصفة خاصة المسلم - أن يحمل الأمانة
التي هي دين الله إلى الناس - والدين عند الله الإسلام - فإن علينا نحن
المسلمين أن نفهم أولاً دورنا في زيادة الحياة ، وأن نحمل أمانتنا
ومسئوليتنا فننشئ هؤلاء الحيارى من ضلالهم ، وساعتها يحق لنا أن نقول
نحن الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن
المنكر وتؤمن بالله .

ولن يتحقق هذا الأمل ، ولن تقل ويلات الحيرة وآثار القلق في هذا

العالم إلا إذا أدركنا حقيقة هذا الإنسان بين مسئوليته التي تنشر نور الله
في الأرض وتحمله جيلاً بعد جيل ، وبين تكريمه الذي أعجب به قوم
ووقفوا عنده ، وهو في الحقيقة توطئة وإعداد لدور هام يقوم به
الإنسان .

ولا نزعم أننا نبشركم جديداً في تقديم هذه الحقيقة وفق تصور
إسلامي ، لكننا نزعم أننا نغير نقطة الضغط ، فنضغط حيث يجب
التركيز على حقيقة الإنسان المكلف المسئول ، وفي تناول القضية بهذا
الشكل تركيز على تحقيق إنسانية الإنسان ؛ لنفهم سر تكريمه وميزته التي
تحدث عنها كتب السماء وشهدها واقع الأرض .

وقد نهجنا في معالجة هذه القضية نهجاً غلب على ظننا أنه تسلسل
وتدرج طبيعي لنقاط البحث ، فقد خصصنا جزءاً لبيان موقف العلوم
التي تهتم بالإنسان ، من طبيعة ومحاولة فهم الإنسان ، وبالطبع لم يكن
في مقدورنا أن نقدم تصورات كل العلوم ، ولا تصورات البعض
بالتفصيل ، لأن هذا يحتاج إلى مجلدات ، ولكننا آثرنا عنصر الاختيار
المسوخ ، فاعتبرنا علمي النفس والأخلاق من أهم ما يهتم بقضيتنا في
الجانب النظري ، ولمسنا تصور العلوم البيولوجية والفسيلوجية للإنسان ،
وجاءت النماذج التي اخترناها مركزة على ما يمس نقطة البحث حتى نرى
ماذا حقق العقل الإنساني لنفسه حين حاول أن يتصورها ؟

وبعد أن قدمنا ما يشبه الاعتراف بإخفاق هذه العلوم ، صراحة في
بعضها وضمناً في بعضها - وإن كنا بهذا لا نقلل من شأنها كمحاولات ،
ولكننا نضعها موضعها من مصادر المعرفة عن حقيقة الإنسان - أقول
بعد هذا وجددني في نقلة طبيعية ومنهجية في آن معاً أنتقل إلى الإسلام
أخذ منه ، بياناً شافياً لطبيعة هذا المخلوق (الإنسان) وحقيقته
ودوره ، وبينت كيف أن الإسلام ينظر إلى الإنسان ككل متكامل ، له

مطالبه ، ليستطيع أداء مهمته ، فيشرع له في كل جانب من الجوانب ما يشبع حاجاته وينهى عوزه ، ولأن الشائع في الحديث عن الإنسان تعداد مظاهر تكريمه - ونحن لاننكرها ولكننا نوجهها - تحدثت عن الإنسان المخلوق المكرم المنعم ، ثم قادني هذا إلى سؤال مؤاده لماذا كل هذا التكريم وهو واحد من مخلوقات الله العديدة ؟ وهنا كانت النقطة الطبيعية إلى الحديث عن الإنسان المسئول الذي تعرفه الشريعة بأنه الكائن المكلف ، فتحدثت عن المسئولية التي نيطة بالإنسان من خلال آيات حددت ذلك ، ووصلت منها جميعها إلى أن خلق الإنسان غايته أنه مسئول ، ثم ربطت بين هذه المسئولية التي هي حقيقة الإنسان وبين التكريم الذي أشير إليه من قبل ، فبينت الصلة بينهما ، وأظهرت أن الإنسان مسئول أولاً ، ثم أعانه الله على هذه المسئولية بالتكريم والتميز ، ولما كانت حقيقة الإنسان أنه مسئول أشرت إلى كيفية تحقيقه لإنسانيته ، وتحمله لمسئوليته ، كما أشرت إلى أن الأمر يختلف إذا انطلقنا من كون الإنسان مسئولاً عنه ، إذا انطلقنا من كونه مكرماً ومميزاً .

ثم جاءت تمة وبيان لشبهات حسبتها كاشفة عن بعض الحقائق ، ومزيلة لبعض الضباب حول الفكرة . وكنت مضطراً - حسب خطة البحث - في كثير من الأحيان إلى الإيجاز والتركيز خوفاً من تفرع البحث إلى بحوث تستقل عنه ، وإيماناً بأن الفكرة يجب أن تؤدي بأقصر لفظ وأوجزه ما دام واضحاً ، حرصاً على وقت المسلمين من جهة ، ومنعاً لتدوين الأفكار بين الألفاظ وترادفها من جهة . هذه هي نظرنا إلى الأمر ، وهي مجرد نظر يجوز عليه ما يجوز على كل نظر البشر وإعمالهم عقولهم ، وحسبنا أنا بها نريد خيراً ، ونبتغي من الله ثواباً . إنه نعم المولى ونعم النصير .

الفصل الأول

الطبيعة البشرية في علوم الانسان وبيانها في الاسلام

حول تعريفات العلوم للانسان

لقد كان الإنسان موضع دراسة كثير من العلوم ، بعضها يتسم بالجانب النظرى ، أعنى دراسة الإنسان من خلال نظريات هذا العلم أو ذاك ، ووجد من مجموع هذه العلوم ما يسمى بالدراسات الإنسانية . كما أن هناك علوماً تبحث فى الإنسان على محك الواقع العلمى ، وبمنظور لا يصدق إلا التجربة ، وما تثبتته نتائج الفحص المعملى ، وفى مجموعة العلوم النظرية نلتقى بالدراسات الاجتماعية ، والدراسات التاريخية والدراسات النفسية والجغرافيا البشرية ، كما نلتقى بعلم الأخلاق بمباحثه التى تهتم بالإنسان فى موقفه الفردى والجماعى ، وغير هذه العلوم ما يمثّلها فى المنهج والمنحى . وفى المجموعة الأخرى من الدراسات التى تهتم بالإنسان نجد الدراسات البيولوجية (علوم الحياة) كما نجد الدراسات النفسية (علوم وظائف الأعضاء) وما يخدمها ويخدم سابقتها من علوم الكيمياء والفيزياء وغيرهما .

ولئن كانت العلوم ذات الاتجاه المعملى لم تشغل نفسها كثيراً بتعريف الإنسان موضوع أبحاثها فى كثير من مناحيها ، فإن أصحاب الدراسات النظرية حاولوا أن يدخلوا إلى بحوثهم حول الإنسان بتعريف يعطف هذا المخلوق العجيب إلى مجال بحوثهم ، ولسنا ندرى هل كان هذا الشغف بتعريف الإنسان مطلباً منهجياً ؟ أو كان ذلك لإبراز صفة فى الإنسان يهتم العلم أن يبرزها ؟ ويستوى بعد ذلك أن يكون هذا لصالح العلم أو لصالح الإنسان .

تلك احتمالات واردة ، وليس من السهل تحديد أحدها ورفضه ماسواه ، وذلك لتداخل الأمور بين ماهو من مصلحة علم يهتم بالإنسان

وبين ما هو من مصلحة الإنسان موضوع هذا العلم من جهة، ثم لتغير مناهج هذه العلوم آنأ بعد آن من جهة أخرى .

على أية حال هذا واقع لا يمكن إنكاره ، بل تمتد جذوره إلى ما قبل الميلاد ، حيث عرف أرسطو الإنسان بقوله : (إن الإنسان مدني بالطبع) .. وجعله نموذجاً وحيداً في الكون حين وصفه بأنه حيوان ناطق ، ثم وصفه بأنه حيوان اجتماعي تلازم فيه صفة النطق صفة الاجتماع ، فليس بين الأحياء على وجه الأرض حيوان يوصف بالنطق وبالفطرة الاجتماعية غير الإنسان^(١) .

وبمثل هذا تعرفه علوم الأخلاق بأنه الإنسان الأخلاقي أو صاحب الضمير ، وهو الكائن الذي يمكن أن يوصف سلوكه بالحميد أو الذميم من الصفات ، وفي ضوء تميزه عن غيره بالحرية والمسؤولية^(٢) ، سواء كانت مسئولية قانونية أو مسئولية خلقية . كما تعرفه الدراسات النفسية بأنه الكائن ذو المشاعر والأحاسيس الذي يخترن من الماضي صوراً للحاضر ، ويرتب على المثيرات استجابات تماثلها وتكيف معها .

والذين يرون في الإنسان جانبه العقلي ميزة وارتفاعاً به فوق كل الكائنات يعرفونه بأنه كائن مفكر يدرك العلاقات بين الأشياء ويخطط للمستقبل وفي ذهنه احتمالات ومرجحات .

وليس بعيد من هؤلاء أولئك الذين يهتمون بالجانب الروحي في الإنسان، فيعرفونه بأنه الإنسان المحب الملهم الذي يسعد بلذة المعنى أكثر مما تسعده لذات المادة . ولم يعدم أصحاب هذه التعريفات الطرق أو الوسائل التي يبررون بها نظراتهم للإنسان مع الاعتراف بأن هذه

(١) عباس محمود العقاد: الإنسان في القرآن، ص ٣٦٨ - موسوعة العقاد - ٤ ، دار الكاتب العربي ، بيروت ، ١٣٩٠ هـ .
(٢) نفس المرجع ، ص ٣٦٩ .

التسويغات تختلف من اتجاه يرى أن غريزة حب البقاء تحكم سلوك الإنسان ، إلى آخر يفسر سلوكه من خلال الغريزة الجنسية ، إلى ثالث يرى أن حب القوة والسيادة هو الباعث على هذا السلوك أو ذاك^(١) .

ومن عجب أن الإنسان يصدق عليه تعريف هؤلاء وأولئك مادامنا لا نحكم بالمقياس المنطقي وهو أن يكون التعريف جامعاً مانعاً لا يشاركه في التحديد غيره ولا يحتاج إلى سواه ، وما ذلك إلا لأن كل علم من هذه العلوم عرف ناحية موجودة في الإنسان على وجه الحقيقة ، لكن الخطأ جاء إلى تعريفاتهم من أنهم اعتبروا الذات الإنسانية هي النفس أو العقل أو الروح أو هي جماع هذه الأشياء، وبعبارة أخرى اعتبر كل علم الإنسان هو الزاوية التي ينظر هذا العلم من خلالها . ولكن الذات الإنسانية أعم من النفس ومن العقل والروح حين تذكر كل منها على حدة ؛ فإن الإنسان يحاسب نفسه لينهاها عن هواها، ولكن الروح من أمر الخالق الذي لا يعلم الإنسان منه إلا ما علمه الله ، ويتوسط العقل بين القوتين ، فهو وازع الغريزة ومستلهم لهداية الروح ... وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبه المحدود ، ولكنه لا يدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام^(٢) .

(١) العقاد : الإنسان في القرآن ، ص ٢٧٠ .
(٢) العقاد : الإنسان في القرآن ، ٤٩ - ٢ ، د . مقداد الجني : علم النفس التربوي في الإسلام ، ص ٢٢ ، دار المريخ بالرياض .

تعريف القرآن

لم يصنع القرآن - وهو الكتاب المنزل من لدن حكيم خبير - مثلاً صنع أصحاب هذه العلوم دون أن ينهلوا منه ، بل عرف الإنسان بخاصية دوره ومجال تميزه ، فقد عرفه بأنه الكائن المكلف كما يفهم من آياته العديدة التي تخاطب العقل بكل ملكة من ملكاته وكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعللون . وإذا كان للمناطق أن يعرفوا الإنسان - مقدرين مزاياه العقلية - بأنه حيوان ناطق ، أو جاز للاجتماعيين أن يعرفوه - مؤكدين على جانب علاقاته الاجتماعية - بأنه حيوان مدني بالطبع ، فإنه يمكن تعريف الإنسان من وجهة نظر الشريعة بأنه الكائن المكلف ، لأنه من بين سائر المخلوقات التي تعيش على وجه الأرض مناط التكليف والمسئولية كما أشار القرآن إلى ذلك^(١) .

وهذا التعريف (الكائن المكلف) أشرف وأصوب من جعله الحيوان الناطق ، أو من جعله الملك الهابط أو الحيوان الصاعد ، لأن الكائن الناطق لا يكون شيئاً ما لم يكن أهلاً للتكليف ، وليس الحيوان الصاعد بمنزلة تفصل بين ما كان عليه وما آل إليه في طريقة الارتقاء ، إنما الكائن المكلف شيء محدود بين الخلائق بكل حد من حدود العقيدة أو العلم أو الحكمة^(٢) .

وحين نقول إن القرآن عرفه بأنه الكائن المكلف أو الكائن المسئول فإننا نستحضر آيات جاءت نصاً في المسئولية في القرآن الكريم مثل :

(١) عبد الكريم عثمان .. (دكتور) : معالم الثقافة الإسلامية ، ص ١٥٨ ، الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، مؤسسة الأنوار ، الرياض .
(٢) العقاد : الإنسان في القرآن ، ص ٢٣٢

« وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » الآية^(١) . وقوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ... » الآية^(٢) . وقوله تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »^(٣) . وقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »^(٤) . ومثل قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى »^(٥) . وغير هذه الآيات مما هو في بابها كثير .

وأقول إن هذه الآيات تنطق بتعريف الإنسان بدوره بأنه الكائن المكلف ، لأن الخلافة فسرّها العلماء بتمثل الدين والحفاظ عليه ونشره جيلاً بعد جيل ، ولأن الأمانة هي في مجموع آراء المفسرين مع شمولها لكل أمانة تأتي نصاً في فروض الدين ، ولأن العبادة التي هي غاية خلق الإنس والجن هي معرفة الله وطاعته ، وطاعته التزام أو امره ونواهيها ، وهما جماع الدين ، وآية تحديد مهمة الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أوضح من أن يشار إليها أو يعلق عليها ، فهي التعبير الصريح فيما ذهبنا إليه .

إذن هذه الآيات وما يدل على معناها هو الذي جعلنا نقول أن القرآن حدد الإنسان بدوره وهو المسئولية التي ستبسط إن شاء الله في موضعها من هذا الكتاب .

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٠ (٢) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ (٤) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

(٥) سورة الأنعام ، الآية ١٦٤

علم النفس وطبيعة الانسان

لعل من أبرز العلوم اتصالاً بالإنسان تلك الدراسات التي تسمى علم النفس ، وواضح من تسمية العلم نفسه أنه يهتم بنفس الإنسان كطريق لمعرفة طبيعته وحقيقته ، حتى قال أحد الباحثين إن علم النفس يبحث في النفس ، ومع غموض هذه العبارة إلا أنها في الحقيقة تعني دراسة الحالات النفسية للإنسان من سرور وألم وغيرها (١) . وهذا العلم من العلوم التي تنو وت بتعريفات عديدة حسب مراحل اهتمام ومدى نجاحه فيها - كما سيجيء - فقد عرفه بعضهم بأنه (علم يهتم بدراسة الإنسان بصورة مباشرة على أنها غاية في نفسها ولا يهتم بدراسة الأمور التي يكون لها أثر ثانوي أو غير مباشر في فعاليات الإنسان ... ويستعين على ذلك في أحيان كثيرة بدراسة الحيوان في سبيل تفهم سلوك البشر وطرق تعلمهم ومعرفة كيفية ونوعية استجاباتهم للمؤثرات الخارجية والداخلية) (٢) .

وعرفته بعض الاتجاهات بأنه علم يهتم بدراسة العقل ، كما عرفته بعض الاتجاهات بأنه علم يهتم بدراسة الطبيعة البشرية ، إلى غير هذا من تعريفات (٣) .

وهذا العلم مر بمراحل عديدة من التطور أوجدت فيه مدارس وقيادات ، ففي عهد ديكارت (١٦٥٠ م) مثلاً بعثت نظرية أفلاطون

(١) عبد العزيز القوصي (دكتور) : علم النفس ، أسسه وتطبيقاته ، ص ١٩ ، النهضة المصرية ، ١٩٧٨ م .

(٢) ضياء الدين أبو الحب : علم النفس التربوي ، ص ١ ، ٨ ، ٩ ، الطبعة الثالثة ١٩٥٩ م ، بغداد .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٤

التي تعتبر العقل أو النفس وحدة روحية والجسد آلة منفذة لأغراضها ورغباتها ، وهي التي تسيطر على الجسم سيطرة كاملة . واعتقد أن الطفل يولد صفحة بيضاء وأن البيئة هي التي تشكل هذا الطفل وعقله وما يمكن أن يتكون عنده من آراء .

وفي بداية القرن الثامن عشر (١٧٣٩ م) أكد هيوم هذا الكلام ، معترفاً بأنه لا يوجد شيء حقيقي غير الإحساسات التي نكون من خلالها معارفنا وآراءنا . ولعل هذه التعريفات والأفكار التي مرت الإشارة إليها تؤكد أن اهتمام هذا العلم مع اختلاف اتجاهاته - وبصرف النظر عن موقفنا الإسلامي منها الآن - يتوجه إلى معرفة الطبيعة الإنسانية ، ويعتبر زاوية نظره هي البداية الحقيقية لهذه الدراسة (١) .

ولعلنا هنا لا نتجاوز الحقيقة حين نقول أن محاولة معرفة الطبيعة الإنسانية قاسم مشترك بين كل مدارس علم النفس على ما بينها من اختلافات ، فجميعها يتساءل عن عناصر تكوين هذه الطبيعة ، هل هي المادة أو الروح ؟ أو هما معاً ؟ ثم أيها الأساس وأيها الذي يمثل مظهراً خارجياً ؟ وتأتي الإجابات وفق المنطق الذي تنطلق منه هذه المدرسة أو تلك بناء على الفلسفة التي يتبعها .

فأصحاب الاتجاه المادي يدرسون هذه الطبيعة منطلقين من حقيقة - في زعمهم - مؤداها أن الإنسان ليس إلا ظاهرة مادية شديدة التعقيد ، مركبة من المواد الكيميائية المختلفة ، وقد نشأت بسبب تطور المواد الأولية .

(١) علم النفس التربوي ، ص ١١ ، ١٢ ، شبكة (٢)

وأصحاب النزعة العقلية يدرسون طبيعة الإنسان على أنه ظاهرة عقلية لاجسمية ، وأن الوجود الجسمي ليس في حقيقة الأمر إلا نتاجاً للعقل يشق منه ويرتبط به ، وبجوار هذين وجد من يفسر طبيعة الإنسان تفسيراً ثنائياً يضمه المادة والروح معاً . وبطبيعة الحال تترتب على هذه المنطلقات أمور تختلف من اتجاه إلى آخر ، فبناء على المنهج المادى تفسر طبيعة الإنسان على غرار الطبيعة الحيوانية (١) .

ولعل هذا كما يرى بعض الباحثين أثر من آثار عدوى نظرية (دارون) في النشوء والارتقاء قد أصاب الاتجاه المادى وعلى رأسهم (فرويد) حين تابع (دارون) في مقولته أن غرائز الإنسان هي الامتداد الطبيعي لغرائز الحيوانات السابقة له في سلم الصعود ، مضافاً إليها قدر من التطور ، هو القدر الذى نتج من الظروف التى صادفت الجذ الأعلى للإنسان فأثرت فيه وأنتجت منه الكائن البشرى على مر الأيام . وهكذا فالإنسان عند (فرويد) وأشياعه كائن أرضى بحت لا يرتفع بمشاعره وعواطفه عن عالم الأرض إلا في حالات الشذوذ (٢) .

ولسنا هنا بصدد تفسير الخطأ الذى وقع فيه (دارون) حين اعتبر الإنسان امتداداً للحيوانات العليا ، ولكن حسبنا أن نذكر هنا إصرار هؤلاء جميعاً على إنكار الروح ، لأنها ليست حقيقة ، ولكن لأن اعترافهم بها يكلفهم تكاليف كثيرة ، كتلك التى كانت تفرضها عليهم الكنيسة ، ففروا منها هارين ، وها هم أولاء يهربون من الاعتراف بالروح لنفس السبب القديم ، فضلاً عن أن هذا يوافق طبيعتهم الوثنية التى ورثوها من روما ولا تزال تعمل عملها فيهم ،

(١) د . مقدار يالجن وآخر : علم النفس التربوى في الإسلام ، ص ٢٤

(٢) محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ١٩ ، ٢٤ الطبعة الرابعة .

وهم بعيدون عن الصواب ، لأنه إذا جاز أن ينظر إلى الإنسان نظرية حيوانية في علم الحياة ، فلا يجوز هذا في علم النفس لخطورة النتائج في هذا الصدد (١) .

وقد أعجب الشيوعيون بنظرات (فرويد) في علم النفس وتركيزه على الجوانب المادية والأرضية ، وهم - أعنى الشيوعيين - في إعجابهم هذا يبحثون عما يخدم فكرتهم في تحطيم المقدسات وتشويه صورتها ، فهم في الحقيقة لا يتعاطفون مع علم النفس ، لأنه يقرر فيما يقرر أن في النفس الإنسانية نزعات فطرية يولد بها الإنسان . وهذا يفتح الباب أمام من يقولون أن حب الملكية نزعة فطرية في البشر أجمعين . ولكنهم في ذلك يحبون (فرويد) ويؤمنون به ، وذلك أنه أشبع شهواتهم في تحطيم المقدسات كلها ، وتلويتها ، وتصويرها بأنها قيود ابتدعها المجتمع (الإقطاعى ثم الرأسمالى) لحماية ذاته ، ولكنها ليست في ذاتها شيئاً يستحق الاعتبار .

فإذا تحطمت المقدسات وتلوث صورتها في نفس الفرد ، وفي نفس المجتمع نتيجة لذلك ، فقد كسبت الشيوعية نصف المعركة على الأقل ، وهذا هو مصدر الإعجاب الشديد برجل لا يؤمن بكل ما يؤمنون .

على أن هذا الفهم المادى لطبيعة الإنسان قد يمتدح الإنسان بأنه قوة فعالة في هذا الوجود ، وليس معنى هذا أنه يؤمن بما فيه من جسد وعقل وروح ، ولكنه قصد خبيث إلى إثبات سيطرة الإنسان في الأرض ، وذلك طريق إلى إنكار الإله ، ومن ثم الدين والرسول والوحي (٢) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧

(٢) محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ٦٣ - ٦٥

مهمة صعبة

طوفت هذه الاتجاهات ما طوفت وعادت دون أن تقول كلمة محددة في بيان طبيعة النفس الإنسانية ، وقد أرجع بعض الباحثين هذا التخلف إلى أسباب بعضها يتصل بجهلنا بأنفسنا ، وبعضها يتصل باختلاف مناهج البحث في هذا المجال كما أشرنا ، وبعضها يتصل بعدم الاهتمام بهذه الدراسات كما يجب^(١).

ومع اتفاقنا مع هذا الباحث في بعض الأسباب إلا أننا نقرر أن الجهل بأنفسنا أمر لا ينفك عنا مادنا نجرى في هذه العلوم في مضمار غير المسلمين . ولا نعرف حقيقة الأمر كما يصوره القرآن وكما بينه التصور الإسلامي لهذا الكائن المكلف . أما عدم الاهتمام بالدراسات النفسية اهتماماً يليق بكرامة الإنسان فلننا أيضاً نقرر أن هناك اهتماماً أدخل بحوث هذه العلوم دائرة التجريب ، وما كان من نتائجه غير ماهو مقرر من الحيرة والاضطراب . نعم هناك غموض في الطبيعة الإنسانية لايزال مضروباً عليها رغم تعدد علم النفس وتنوعه ، ولعل السر في ذلك أن العلم الحديث لم يستطع أن يغوص فيه لاستعصائه على الخضوع لمناهج العلم الحديث ومقاييسه الموضوعية ، ولذلك عدل علماء النفس المحدثون عن البحث في جوهر النفس والعقل والروح ومدى صلة ذلك بمظاهر السلوك الإنساني إلى البحث عن مظاهر السلوك النفسي المادى لأنه يخضع لتلك المقاييس الموضوعية^(٢).

(١) د. مقداد يالجن وآخر : علم النفس التربوي في الإسلام ، ص ٢٤ و ٢٥

(٢) د. مقداد يالجن : علم النفس التربوي في الإسلام ، ص ٢٥

وقد قرر أكثر من باحث في مجال علم النفس أن علم النفس كان يبحث أولاً في الروح ثم صار يبحث في العقل ، وانتقل بعد ذلك إلى الشعور ، وأخيراً صار موضوع بحثه هو السلوك الخارجى ، وعن اضطراب علم النفس وإخفاقه في مهمته هذه يقول أحد الباحثين فيه : (إن علم النفس كان يبحث أولاً في الروح ، ثم صار يبحث في العقل ، وانتقل بعد ذلك إلى الشعور ، وأخيراً صار موضوع بحثه هو السلوك الخارجى) . وفى ذلك التاريخ الطويل الذى مرت به موضوعات البحث قال (وودورث) عبارة فكهة : (إن علم النفس عند أول ظهوره زهقت روحه ، ثم خرج عقله ، ثم زال شعوره ولم يبق منه إلا المظهر الخارجى)^(١) ، بل واعترف أكثر صراحة من هذا بالإخفاق والفشل حين يناقش بعض الدارسين تعريفات علم النفس ، فيقرر أنهم حين يعرفون علم النفس بأنه علم يهتم بدراسة العقل يخطئون ، لأننا مع اعترافنا بأن هذا من اهتمامات علم النفس إلا أن طبيعة العقل الإنسانى والحكم عليها أمر يحتاج إلى استقراء ، وهذا صعب بل غير ممكن . ويرى أن هذه المحاولة ممن عرفوا العلم بهذا هى دخول به ميدان الجدل والفلسفة دون جدوى من المناقشة أو البحث^(٢).

ويرى هذا الباحث نفسه أن تعريفهم للعلم بأنه دراسة الطبيعة البشرية ليس بأسعد حالا من سابقه ، لأننا لا ندري ماذا تعنيه الطبيعة البشرية إلى جانب تعقد هذا الموضوع وتشابكه ، ماذا يدخل فيه ، وماذا يخرج منه ، ولذا فلننا نبقي حائرين في فهم الطبيعة البشرية كما تهمنا في بادئ الأمر في تقرير ماهية العقل الإنسانى^(٣).

(١) القوصى : علم النفس ، ص ٢٥

(٢) ضياء الدين أبو الحب : علم النفس التربوي ، ص ١٤

(٣) المرجع السابق ، ص ١٥

وتدل المقارنة بين نتائج هذا العلم قديماً وبينها حديثاً على ذلك ، فقد شغل الفلاسفة قديماً ببحث جوهر النفس وخلودها ووحدتها ؛ وصلتها بالجسم ، وأدلة هذا وذاك ، بينما الدراسات الحديثة تتركز أساساً على مظاهر الأداء في ميادين مختلفة ، وهذا أدى بدوره إلى تنوع فروع علم النفس ، مثل : علم النفس التربوي وعلم النفس التعليمي وعلم النفس الاجتماعي والمهني والطبي ، وغير هذا^(١) .

النفس الإنسانية في علم الأخلاق

من المقرر أن موضوع النفس شغل حيزاً كبيراً في الفكر الإنساني ، بدءاً باليونان وحتى وقتنا هذا ، ومقرر كذلك أن ضرورة تطهير النفس وإصلاحها أمر حتمه وحبه كل المفكرين وإن اختلفت اتجاهاتهم^(٢) . غير أنه بين اتجاهات التفكير الأخلاقي لدى المسلمين وجد اتجاه يهتم بالنفس اهتماماً بالغاً ، يفوق فيه أصحاب الاتجاه النصي ، وأصحاب الاتجاه العقلي ، وأصحاب هذا الاتجاه الروحي في الأخلاق يركزون هذا الاهتمام على النفس الإنسانية ، منطلقين فيه من منطلقات لعل أهمها :

١ - اتفاق هذا المنحى مع طبيعة التجربة الروحية التي تختم صفاء النفس وتهذيبها .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، قارن مؤلفات أرسطو في النفس ، وابن سينا ، والدكتور محمود قاسم حديثاً بما تصدره مكتبة الدراسات النفسية الحديثة تجد صدق ما أشرنا إليه .

(٢) انظر : د. محمود قاسم : في النفس والعقل عند فلاسفة الإغريق والإسلام ؛ ص ٢٤ - ٢٨ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٣ م مصر .

انظر : د. قاسم أيضاً : دراسات في الفلسفة الإسلامية ، ص ١٠ - ١٣ ، طبعة ثالثة .

انظر : د. محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ، ص ٢١٠ ، الطبعة الثانية .

٢ - تأثرهم بما قرأوا وسمعوا من أوصاف النفس والتحذير من اتباع هواها ، في القرآن والسنة ، وسلوك الرسول وصحابته .

٣ - شعورهم - كغيرهم من المسلمين - بخطورة هذه الرذائل النفسية أو الأمراض النفسية ، وضرورة علاجها ، طلباً للسلوك الأخلاقي الأمثل كما يراه الإسلام .

معنى النفس وأوصافها

في كثير من التعريفات التي قدمها فلاسفة الإسلام للنفس كانوا نقلة أمناء عن أرسطو دون تحويل أو تبديل ، فقد كان تعريفهم ترجمة حرفية للنص الإغريقي الموجود في كتاب النفس لأرسطو ، وهذا التعريف هو (أنها كمال أول لجسم آلى ذى حياة بالقوة)^(١) .

لكن أصحاب الاتجاه الروحي لم يعرفوا النفس بالحد المنطقي كما صنع غيرهم ، وإنما قدموا أوصافاً للنفس الإنسانية تحدد طبيعتها ومدلولها عندهم ، مما يجعل من الضروري تغيير هذه الأوصاف بالمجاهدة وقمع الهوى .

ولعل خير فهم لطبيعة النفس عند هؤلاء هو ما يقدمه ابن قيم الجوزية إذ يقول : (والمراد بالنفس عند القوم ما كان معلولاً من أوصاف العبد ، مذموماً من أخلاقه وأفعاله ، سواء كان ذلك كسيئاً أم خلقياً ، فهو شديد اللائمة لها)^(٢) .

وعليه فهم ينظرون إلى النفس على أنها موطن الجهل والطيش والشـر كوصف لابد أن يترقى ، وهم ينظرون إلى أن النفس تستحق وصفها

(١) د. محمود قاسم : في النفس والعقل ، ص ٧١

(٢) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ص ٢ - ٧ ، تحقيق محمد حامد الفقى

سنة ١٩٥٦ م .

وتدل المقارنة بين نتائج هذا العلم قديماً وبينها حديثاً على ذلك ، فقد شغل الفلاسفة قديماً ببحث جوهر النفس وخلودها ووحدتها ؛ وصلتها بالجسم ، وأدلة هذا وذاك ، بينما الدراسات الحديثة تتركز أساساً على مظاهر الأداء في ميادين مختلفة ، وهذا أدى بدوره إلى تنوع فروع علم النفس ، مثل : علم النفس التربوي وعلم النفس التعليمي وعلم النفس الاجتماعي والمهني والطبي ، وغير هذا (١) .

النفس الإنسانية في علم الأخلاق

من المقرر أن موضوع النفس شغل حيزاً كبيراً في الفكر الإنساني ، بدءاً باليونان وحتى وقتنا هذا ، ومقرر كذلك أن ضرورة تطهير النفس وإصلاحها أمر حتمه وحبذه كل المفكرين وإن اختلفت اتجاهاتهم (٢) .

غير أنه بين اتجاهات التفكير الأخلاقي لدى المسلمين وجد اتجاه يهتم بالنفس اهتماماً بالغاً ، يفوق فيه أصحاب الاتجاه النصي ، وأصحاب الاتجاه العقلي ، وأصحاب هذا الاتجاه الروحي في الأخلاق يركزون هذا الاهتمام على النفس الإنسانية ، منطلقين فيه من منطلقات لعل أهمها :

١ - اتفاق هذا المنحى مع طبيعة التجربة الروحية التي تحتم صفاء النفس وتهذيبها .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٦ ، قارن مؤلفات أرسطو في النفس ، وابن سينا ، والدكتور محمود قاسم حديثاً بما تصدره مكتبة الدراسات النفسية الحديثة تجد صدق ما أشرنا إليه .

(٢) انظر : د. محمود قاسم : في النفس والعقل عند فلاسفة الإغريق والإسلام ؛ ص ٢٤ - ٢٨ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٣ م مصر .

انظر : د. قاسم أيضاً : دراسات في الفلسفة الإسلامية ، ص ١٠ - ١٣ ، طبعة ثالثة .

انظر : د. محمد يوسف موسى : تاريخ الأخلاق ، ص ٢١٠ ، الطبعة الثانية .

٢ - تأثرهم بما قرأوا وسمعوا من أوصاف النفس والتحذير من اتباع هواها ، في القرآن والسنة ، وسلوك الرسول وصحابته .
٣ - شعورهم - كغيرهم من المسلمين - بخطورة هذه الرذائل النفسية أو الأمراض النفسية ، وضرورة علاجها ، طلباً للسلوك الأخلاقي الأمثل كما يراه الإسلام .

معنى النفس وأوصافها

في كثير من التعريفات التي قدمها فلاسفة الإسلام للنفس كانوا نقلة أمناء عن أرسطو دون تحويل أو تبديل ، فقد كان تعريفهم ترجمة حرفية للنص الإغريقي الموجود في كتاب النفس لأرسطو ، وهذا التعريف هو (أنها كمال أول لجسم آلى ذي حياة بالقوة) (١) .

لكن أصحاب الاتجاه الروحي لم يعرفوا النفس بالحد المنطقي كما صنع غيرهم ، وإنما قدموا أوصافاً للنفس الإنسانية تحدد طبيعتها ومدلولها عندهم ، مما يجعل من الضروري تغيير هذه الأوصاف بالمجاهدة وقمع الهوى .

ولعل خير فهم لطبيعة النفس عند هؤلاء هو ما يقدمه ابن قيم الجوزية إذ يقول : (والمراد بالنفس عند القوم ما كان معلولاً من أوصاف العبد ، مذموماً من أخلاقه وأفعاله ، سواء كان ذلك كسبياً أم خلقياً ، فهو شديد اللائمة لها) (٢) .

وعليه فهم ينظرون إلى النفس على أنها موطن الجهل والطيش والشر كوصف لابد أن يترقى ، وهم ينظرون إلى أن النفس تستحق وصفها

(١) د. محمود قاسم : في النفس والعقل ، ص ٧١

(٢) ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ، ص ٢ - ٧ ، تحقيق محمد حامد الفوق سنة ١٩٥٦ م .

— كما جاء في القرآن — بمقدار ترقبها واقترابها من القلب — فالنفس الأمارة بالسوء هي التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمر باللذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلوب إلى الجهة السفلية ، فهي مأوى الشر ومنبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة ، قال الله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء » (١) .

أما النفس اللوامة فهي التي تنورت بنور القلب تنوراً قدر ما تنهت به عن سنة الغفلة ، فتيقظت وبدأت بإصلاح حالها ، مترددة بين جهتي الربوبية والخلقية ، وكلما صدر منها سيئة بحكم جبلتها الظلمانية تداركها نور التنبيه الإلهي فأخذت تلوم نفسها وتتوب عن سيئتها ، مستغفرة ، راجعة إلى باب الغفار الرحيم ، ولهذا بوأها الله مكاناً يذكرها بالأقسام بها : « ولا أقسم بالنفس اللوامة » (٢) .

أما النفس المطمئنة فهي التي تم تنورها بنور القلب ، حتى تخلصت وانخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة ، وتوجهت إلى جهة القلب بالكلية .. مواظبة على الطاعات ، سالكة إلى حضرة رفيع الدرجات ، حتى خاطبها ربها بقوله : « يا أيها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » (٣) . وفي كل نظرات أصحاب هذا الاتجاه للنفس تجد المعاني السابقة ، وهي أنها شر محض ما لم تترق بالطاعة والمثابرة والالتزام وسماع أمر القلب المستنير بنور الله سبحانه (٤) .

(١) سورة يوسف ، الآية ٥٣ (٢) سورة القيامة ، الآية ٢

(٣) سورة الفجر ، الآيات ٢٧ - ٣٠

(٤) اصطلاحات القاشاني - ورقة - ١٥ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٢٧) اصطلاحات ، د . أبو الوفا التفتازاني : دراسات في الفلسفة الإسلامية ، ص ١٣٩ ، سنة (١٩٥٧ م) .

وربما كان أصلهم في هذا الفهم ماورد في القرآن والحديث من ذم للنفس مثل قوله تعالى : « إن النفس لأمارة بالسوء » . وقوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (١) . وكذلك ما وجدوه في السنة من آثار تدل على ذلك ، فقد روى البيهقي في الزهد عن ابن عباس بإسناد ضعيف ، ولكن له شاهد بقوته من حديث أنس ، روى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك) .

ومن هذا الفهم ركز أصحاب هذا الاتجاه على ضرورة إصلاح النفس وتهذيبها ، وقد تناولوا هذا الأمر بأساليب تتفاوت في الشكل ، لكنها تلتقي حول المعنى السابق لطبيعة النفس وكونها شريرة تقارن الهوى والشيطان ، والرقى الأخلاقي يقتضى مخالفة هواها (٢) .

ضرورة التأديب للنوازع الشريرة في الإنسان

منطقي - والنفس عندهم موطن الشر وممكن الهوى - أن يكثر قولهم في ضرورة تأديب هذه النفس ، وأن يكثروا الحديث عن أمراضها كطريق للعلاج الذي يجذبونه ، وذلك يكون بالقمع والمخالفة والتنبيه إلى خطورة الإصغاء إلى النفس وسوء الانخداع بوساوسها . وأفكار أصحاب الاتجاه الروحي في هذا الصدد ليست كلمات فحسب ، بل صاحبها عمل وجهاد من ناحيتهم ، فيحكى أبو الفرج الجوزي عن معروف الكرخي (ت ٢٠٠ هـ) أنه كان يضرب نفسه ويقول لها : (يا نفس كم تبكين ، أخلصي تخلصي) (٣) .

(١) سورة النساء ، الآية ٧٩

(٢) الترمذى (محمد بن علي . ت ٢٨٥ هـ) النفس والأعضاء - مخطوط ضمن رسائل الترمذى - ورقة - ٢

(٣) ابن الجوزي : صفة الصفوة ، ج ٢ ، ص ١٧٣ (الطبعة الأولى) .

وينقل أيضاً قول السرى السقطى (٢٥٨ هـ) : « أقوى القوة أن تمتلك نفسك ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز ، ومن علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس » (١) .

فعند السرى السقطى أن من أدب النفس ألا تسكن إلى المدح الكاذب حتى ولو كان هذا المدح مما تحبه النفوس المؤمنة ، كأن يقال لك : أنت صالح أو ولى من أولياء الله ، فإن هذا شراك خداع يجب أن يتنبه له المسلم (٢) .

وبعيداً عن الأقوال المتناثرة في كتب التاريخ فإن بعض أصحاب هذا الاتجاه قصر بحثه لمعالجة هذه القضية ، فنجد الحكيم الترمذى يفيض في الحديث عن هذه القضية الأخلاقية المهمة ، فيحذرننا من خطورة الإصغاء إلى النفس ويعتبر من يقع في هذا مغروراً ، فأما الكيس فجدير به ألا يكون ذلك (فالمغتربون يقطعون أعمارهم بإصغائهم بأذان قلوبهم إلى نفوسهم وإلى ما يورد الهوى عليها) . ويحذر من النفس ، فهى في خداعها جد ماكرة ، وجهادها ليس سهلاً . فيقول : « فمن شأن النفس إذا جاءت بباطلها وجورها وكذبها في الأمور أن تعمى على صاحبها وتزين له ذلك حتى تغره ، وتموه عليه حتى يدوم ذلك الغرور ، فقد اشترك في هذه الخنة الصديقون ، والزاهدون ، والعابدون ، والمتقون ، وعلماء الظاهر ، وقل من سلم منهم من هذا الاغترار ، فإذا كان هؤلاء الذين هم أعلام الدين في الظاهر لا يسلمون من غرور النفس فما ظنك بهؤلاء العامة » (٣) .

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٢

(٢) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٢١٦

(٣) الحكيم الترمذى : كتاب الأكياس والمغترين - ورقة - ١ (مخطوطة بجامعة القاهرة ٢٦٠٣٤) .

ولهذا فإن الحكيم يرى أن النفس التى تخدع وتغر صاحبها بهذه الصورة ، لابد أن تؤدب وتقمع شهواتها ، فيمنعها من بعض الحلال - تأديباً وتهذيباً - فضلاً عن الحرام ، مع ملاحظة أن هذا الحرمان ليس تحريماً لما أحله الله للناس ، ولكنه مقتضى ضرورة التأديب .

« وهذا الذى وصفنا من ترك الشهوات وتجنبك الملمات ليس تحريم ما أحل الله لك ولكن تأديب نفسك ورياضة لها » (١) .

وبفصل القول في أدب النفس فيقول : « وأدب النفس أن يمنعها من الحلال حتى لا تطمع في الحرام ، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام ، فإذا ألزمها الصمت فيما لابد منه حتى تعتاد السكوت عن الكلام فيما لابد منه ، فقد ماتت شهوة الكلام فاستراح وقوى على الصدق ، فلا يتكلم إلا بحق ، فصار سكوته عبادة ، وكلامه عبادة ، لأنه إن نطق نطق بحق ، وإن سكت سكت بحق ، لأنه سكت مخافة الوبال » (٢) .

والترمذى يرى صلاحية هذا المنهج في تأديب النفس من كل الشهوات ، ويذكر أن الأكياس راضوا أنفسهم فأدبوا فامتنعوا عن الحلال المطلق لهم حتى هدأت جوارحهم بعد أن سكنت لسكون غليان النفس وشهواتها (٣) .

وللرياضة التى يجدها الترمذى أثرها على القلب بصفائه بعد قتل الشهوات النفسية ، فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوا بمنعها من الشهوات التى أطلقت لهم ، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لابد منه كهيئة

(١) الترمذى : الرياضة وأدب النفس - ٢٩ - آبرى - ترجمة على حسن عبد القادر (١٩٤٧) .

(٢) د. عبد الفتاح بركة : نظرية الولاية عند الترمذى ، ج ٢ ، ص ١٩٥

(٣) الرياضة وأدب النفس ، ص ٤٧

المضطرب... فكلمنا منعوها شهوة أتاها الله على منعها نوراً في القلب، فقوى القلب، وضعفت النفس، وحي القلب بالله جل ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات حتى امتلأ القلب من الأنوار وخلت النفس من الشهوات. أما ذلك الذي لا يروض نفسه ويعطيها منها من الحلال حتى تترع، فإنه يعمل كثيراً من البر مستظراً به، ولذا يجعل له ثواب الدنيا، وعليه من المخاوف الكثير من الرغبة والرغبة من المخلوقين، ومن حب الدنيا والرياسة، لأنه فسد باطنه وضرب قلبه^(١).

محاسبة النفس

ولأن النفس خادعة ماكرة، ولأن وساوسها وعدائها يفسدان العمل، وجدنا في الفكر الأخلاقي لدى أصحاب الاتجاه الروحي دعوة صريحة وجادة إلى ضرورة محاسبة النفس، ويعنون بهذه المحاسبة أن يقف العبد وقفة عند ظهور المهمة وابتداء الحركة ثم يميز الخاطر، فإن كان لله وبالله أمضاه وسارع في تنفيذه، وإن كان لعاجل دنياه أو عارض هواه، أو لهُو وغفلة، نفاه وسارع في نفيه، ولم يمكن الخاطر من لبه بالإصغاء إليه والمحادثة له.

وحين نذكر محاسبة النفس نذكر علماً من أعلام البحوث النفسية في هذا الصدد، إنه الحارث بن أسد المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) الذي برز في هذا الجانب: «إخواني، وخصلة أعهد بها إليكم فيها جماع الخير كله. أوصيكم برعاية الجوارح والقلوب والتثبت بذلك في الأحوال كلها، ولا تبدأوا بفعل ولا قول، ولا تضمروا شيئاً إلا بنظر وتدبير، فإن كان محموداً عند الإله سبحانه، فبادروا بفعله، وما كان مذموماً

(١) المرجع السابق، ص ٥١

فجانبوه، وما خفى عليكم معرفته، فكلوه إلى العالم به، وقفوا عنه حتى يأتي الله بعلمه وبيانه»^(١).

والمحاسبى إلى جانب أن له من اسمه نصيباً، فإنه في الحقيقة قدم للفكر الأخلاقي ما يبرز اهتمامه بالنفس والقلب والجوارح، وله في هذا كلام طويل نجتزئ منه: «قلت أخبرني عن الازدراء على النفس كيف هو؟ قال: معرفتك بقدرتها، وسوء رغبتها وأفعالها، ومعرفتك بقدرها أن تعرف كيف ينبت في طبائعها وهيتها، وكيف استثقلمها لطريق نجاتها من غير بغض للنجاة، ولكن كراهة لحمل المؤن، وكراهة لترك محبوبها من عاجل الدنيا، وكيف تعلقها بما فيه هلاكها من غير حب للهلاك في آخرتها، ولكن بمقارنة لذاتها ومجانبة هواها في غير عاجل الدنيا، هذا مع إقرارها بأن ثواب الآخرة أعظم، ويعلم أن طبعها قائم بطلب ما يوافقها من الدنيا لا يغفل عن ذلك طرفة عين»^(٢).

وجدير بالذكر أن المحاسبى يلفت النظر إلى مخالفة النفس - بعد معرفتها - أمر ديني له صلة كبيرة في العلاقة بالله «لا تصدق الله حتى تصدق نفسك، ولا تصدق نفسك حتى تعرفها، ولا تعرفها حتى تفقدها وتعرضها على الله فتعرض أحوالها، ولا تعرض أحوالها حتى تهتمها فيما تظنها محسنة فيه... فإذا عرفتها حذرتها، وإذا حذرتها تفقدتها، وإذا تفقدتها أبصرت روغانها من طاعة ربها عز وجل، وتزينها بما لا يجب خالقها، لأنها مصدر كل سوء، فأعرف نفسك فإنك لم ترد خيراً قط

(١) الحارث المحاسبى: الوصايا والنصائح الدينية، ص ٧٨، تحقيق عبد القادر عطا (١٩٦٤ م) مصر.

(٢) المحاسبى: الرعاية لحقوق الله ٣٦ - ٣٩ و ٢٥٩ و ٢٨٩؛ (د ت) تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود طه سرور، وكذلك المحاسبى: المسائل في أعمال القلوب والجوارح، ص ١٤٨ و ١٤٩ (تحقيق عبد القادر عطا، ١٩٦٩ م).

مهما قلّ إلا وهى تنازعك إلى خلافه ، ولا عرض لك شر إلا كانت هى الداعية إليه « (١) » .

وإذا كان المحاسبي قد شغل بأمراض النفس فإن الجنيد بن محمد البغدادي (ت ٢٩٨ هـ) قد أكثر الحديث في تأديب النفس مع الناس وكتب « أدب المفتقر إلى الله » كما وصف دواء الأرواح ودواء التفريط والغفلة ، وهو يرى « ضرورة أن يفتن الإنسان إلى حالات النفس » . وينبغي للعاقل ألا ينفك من إحدى ثلاثة مواطن : موطن يعرف فيه حالة أمتزайд هو أم منتقص ، وموطن يخلو فيه بتأديب نفسه وإلزامها ما يلزمها ، وموطن يستحضر عقله مجارى التدبير وكيف تختلف الأحكام آناء الليل وأطراف النهار « (٢) » .

ولن يتسع المقام لعرض مفصل لما كتبه الجنيد ، أو غيره من أعلام هذا الاتجاه ، ولكن حسبنا أن نقرر أن فهمهم لطبيعة النفس وطبعها وأوصافها جعلهم يهتمون ضرورة تأديبها ومحاسبتها ، ومخالفها ما دامت تأمر بالهوى وما دامت بعيدة عن الترقى . ويمكن أن يقال أن أصحاب هذا الاهتمام بالنفس الإنسانية قد قسوا عليها ولم ييسروا لها ، لكن ربما انجلى هذا الظن حين يعرف صاحبه أنهم يتحدثون عن نفس يغلب عليها هواها ، وأنهم يفتنون إلى أثر هوى النفس على السلوك الإنسانى كله ، وأنه ليس صاحبه وحده هو الذى يخسر فيه ، بل تضار الإنسانية كلها من جراء هذا الانحراف الخلقى . فى هذا الصدد يؤخذ من أصحاب هذا الاتجاه أصل القضية وهو الاهتمام بالنفس وضرورة تقويمها ، ونرد عليهم مبالغاتهم فى هذا إن وجدت ،

(١) المحاسبي : الرعاية ، ص ٢٧٧ - ٢٨١

(٢) الجنيد : دواء التفريط - ورقة - ٢ ، مخطوط معهد المخطوطات العربية

ونحن لا نحكم حكماً غير القرآن والسنة . وفى الحقيقة لقد أفاد أصحاب هذا الاتجاه الفكر كله حين تحدثوا عن بعض أمراض النفس وكيفية علاجها ، وها نحن أولاً نذكر بعض فكرهم فى هذا الصدد .

أمراض النفس وعلاجها

تعلق بالنفس الإنسانية أمراض كثيرة ، كالخسد والكبر والعجب والغرور ، ولعل أهم هذه الأمراض هو الرياء ، لأنه شرك أصغر ، ولأنه يحبط الأعمال . وقد تحدثوا عن هذا المرض وعلاجه ، نذكر من حديثهم فى هذا الصدد : « قال الرياء هو الإرادة وحدها ، إلا أنه على وجهين : أحدهما أعظم وأشد ، والآخر أهون وأيسر ، وكلاهما رياء . وإنما الوجه الذى هو أشد الرياء وأعظمه إرادة العبد للعباد بطاعة الله عز وجل ، لا يريد الله عز وجل بذلك ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم حين سئل : فيم النجاة ؟ قال : ألا تعمل بطاعة الله تريد الناس » .

وكذلك يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن المرائى ينادى يوم القيامة على رؤوس الخلائق : يا فاجر ، يا غادر ، يا مرأى ، ضل عملك وحبط أجرك ، اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له .

وأما الوجه الذى هو أدنى وأيسر فإرادة العبادة بطاعة الله عز وجل ، وإرادة ثواب الله عز وجل يجتمعان فى القلب ، الإرادتان ، إرادة المخلوقين وإرادة ثواب الله . وهو أدنى الرجاء ، وهو الشرك بالإرادة فى العمل ، لأن الأول أراد الناس ولم يرد الله عز وجل ، وهذا أراد الله عز وجل والناس ، وكذلك يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل لى عملاً أشرك فيه غيرى فأنا منه براء ، وهو للذى أشركه » (١) .

(١) الرعاية لحقوق الله ، ص ١٣٥

ويذكر المحاسبي أن المصابين بهذا المرض الخطير تتفاوت حالة إصابتهم به واستحكامه منهم ، فيذكر أن المرائين درجات ، أشدها خطراً من يرأى في الإيمان ، يظهره وهو يعتقد التكذيب والشك ، ويليه من يرأى بالفرائض كالصلاة والزكاة وغيرهما ، ويليهما من يرأى بالسنن الواجبة كالجماعات ونحوها ، ويليه من يرأى بأكمال الفرائض كتطويل الركوع والسجود فإذا خلا له المكان خفف ، ونحو هذا^(١) .

أما عن الآثار الخلقية لهذا المرض الخطير فهي ظهور بعض الخلال منها : المباهاة بالعلم والعمل ، والتفاخر بالدين والدنيا ، وقد يعترى التفاخر أيضاً من جهة الكبر ، ولكن التفاخر من جهة الرياء جزءاً أن يعلى ومحبة أن يعلو ، والتكاثر بالمال وغيره من أمر الدنيا ، والتحاسد على العلم والعمل لغیر منافسة ، ولكن جزءاً أن ينال من يحاسد من المنزلة والحمد ما لا يناله هو ، ورد الحق على من ناظره لثلا يقال : هو أعلم منه ، وحب الرئاسة والغلبة في المناظرة ، وترك التعلم لما يحتاج إليه من العلم^(٢) .

ويعرف المريض بهذا المرض بمظاهر ، منها أنه يحب الحمد على طاعة الله عز وجل ، ويكره الذم ، ويدع الطاعة من أجل الذم ، وإذا عمل عملاً لم يعلم به غير الله ، أو علم علماً لم يعلم به إلا الله ، لم تقتنع نفسه في عمله وعلمه بعلم الله عز وجل ونظره وسمعه وحده ، حتى يغلب على قلبه الطلب لعلم غيره ، يهتم لذلك ، فإن اطلعوا عليه ارتاح قلبه لذلك وسر بحمدهم ، وأخف الناس عليه من حمده وأثنى عليه ، وأثقل الناس من ترك حمده والثناء عليه ، ولا تسخو نفسه بإتيان طاعة الله لا يعلمها أحد ، فإن أراد نفسه على ذلك ثقل عليها ، ولم تطاوعه عليه^(٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ١٨٤

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٤

(٣) المرجع السابق ، ص ١٨٩

أما عن العلاج فنقدم هذه اللمسات ، فهم يؤكدون على أنه لا بد من مراقبة الإنسان نفسه ، فلا بد أن يكون العمل متوجهاً به إلى الله لا يريد به غيره ، قانعاً بعلم الله وحده ، فإن اطلع عليه غير الله منع قلبه من الفرح والطرب الزائد بهذه ، فإن غلب الطبع في ذلك ، منع قلبه من الركون إليه ، ولا بد من الفطنة والحذر حتى يفرغ من عمله ويحاول جاهداً أن يمنع قلبه من الرغبة في إظهار عمله للناس ، طلباً للمدح منهم أو الفضيلة عندهم ، وأن يراقب النية ويخلصها من كل شائبة ، حذراً من غفلة يحصيها الله سبحانه عليه ، وهو أعلم بكل شيء^(١) .

وقد وصف الحكيم الترمذی طريقة للعلاج ، راعى فيها التدرج مع النفس حتى تقتلع منها الرذائل ، وهنا يمكن أن يحل محلها الفضيلة ، وقد أخذ بهذا العلاج التدريجي كثير من باحثي الأخلاق ، حيث يرون في ذلك تيسيراً على النفس وواقعية في التعامل معها ، وذلك بأن يعودها الإنسان الفعل الحميد ، تكلفاً في أول الأمر ثم يصير طبعاً فيها^(٢) .

وجميع وسائل العلاج النفسي تحتويها المجاهدة والرياضة للنفس وأخذها بالطاعات ، وهذا منحي لا يختلف عليه عاقلان .

على أية حال لقد اهتم أصحاب هذا الاتجاه اهتماماً بالغاً بأمر النفس الإنسانية : طبيعتها وصفاتها وأمراضها وعلاجات هذه الأمراض ، وهذا الاهتمام كان له صدى غير قليل في فكر المسلمين - كابن مسكويه وابن قيم الجوزية وابن حزم - وفوق هذا الأثر فهو يعكس الاهتمام المبكر بالبحث في داخل الإنسان مثلاً فعلت علوم النفس مؤخراً فيما أشرنا إليه.

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٠

(٢) سلطان بك محمد : الفلسفة العربية والأخلاق ، ج ٢ ، ص ٦٩

(٣ - حقيقة الإنسان)

سر اهتمام البحث بهذه الدراسات

هذه الدراسات هي في واقع الأمر جزء من علم الأخلاق والذي ذكرنا أنه يهتم بمحاولة بيان الطبيعة الإنسانية ، وسواء كان هذا العلم قد تأثر باليونان لدى بعض مؤلفيه أو يغلب عليه السمات الإسلامي لدى البعض الآخر ، أقول سواء هذا أو ذاك فهو علم يهتم بدراسة سلوك الإنسان ، ولسلوك الإنسان ارتباط كبير بدوره الذي يحدده لنا التصور الإسلامي ، إذاً فاهتمامنا بهذه الدراسات هو جزء من خطتنا في التعرف على منحى هذه العلوم في التعرف على الإنسان .

فإذا علمنا أن هذه المباحث الأخلاقية في ميدان النفس الإنسانية ، ترتبط بحقيقة مسئولية الإنسان ، كما يصرح بهذا بعض مفكرى الأخلاق الإسلاميين ، إذا علمنا هذا أدركنا سر اهتمام البحث بهذه الدراسات . فالراغب الأصفهاني يرى أن الخلافة في الأرض تستحق بالسياسة التي تتضمن نوعين :

- ١ - سياسة الإنسان لنفسه وبدنه وما يختص به .
- ٢ - سياسته لغيره ، ومن عجز عن سياسة نفسه كان عن سياسة غيره أعجز (١) .

فأدب النفس عنده شرط أساسى لعارة هذه الحياة « لا يصلح لخلافة الله ، ولا يكمل لعبادته ، وعمارة أرضه ، إلا من كان طاهر النفس ، قد أزيل رجسها ونجسها ، فللنفس نجاسة كما أن للبدن نجاسة ، لكن نجاسة البدن قد تدرك بالبصر ، ونجاسة النفس لا تدرك إلا بالبصيرة ، وإياها

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ص ١٩

قصد تعالى بقوله : « إنما المشركون نجس » (١) ، « والرجس فاهجر » (٢) ، وكذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون » (٣) . وإنما لم يصلح لخلافة الله إلا من كان طاهر النفس ، لأن الخلافة هي الاقتداء به تعالى على الطاقة البشرية في تحرى الأفعال الإلهية ، ومن لم يكن طاهر النفس لم يكن طاهر القول والفعل .. ولهذا قيل من : طابت نفسه طاب عمله ، ومن خبثت نفسه خبث عمله ، وقال عليه الصلاة والسلام : (المؤمن أطيب من عمله ، والكافر أخبث من عمله) (٤) .

من هذا كان رأى من رأى أن تأديب النفس بالرياضة ، واستصلاحها ، فهو ما كان على حال لا يقبل العقل خلافة (٥) ، وهذا يعنى أن أدب النفس مطلب عقلى فوق أنه شرعى . إذاً فاهتمام البحث بهذه الدراسات لم يبعد عن خطه ، ولكنه عرج ووقف طويلاً بعض الشيء على ناحية هامة من محاولات العلوم لاكتشاف طبيعة الإنسان ، ونحن هنا لانتاقل منطلقهم في شرية هذه النفس ، ومدى توفيقهم في هذا ، ولكننا نسأل : هل هذه المحاولات قدمت تصوراً لطبيعة الإنسان تمهيداً لفهمها حقيقة دوره الذى من أجله كان إنساناً ؟

ويمكننا القول - في ضوء ما سبق - بأن علم الأخلاق في اتجاهه هذا لم يقدم تصوراً لطبيعة الإنسان ، وإن كان قد أغرق نفسه في بحوث تتسم بالجزئية بعض الشيء في مجال النفس والقلب والنية ، وأقول أنها جزئية لا للتقليل من قيمتها ، فهي في بابها بحوث رائدة كانت الطريق لما يمكن أن يسمى بعلم النفس الإسلامى ، ولكن لأنها قصرت همها

(١) سورة التوبة ، الآية ٢٨ (٢) سورة المدثر ، الآية ٥

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٢٥ (٤) الذريعة ، ص ٢٠

(٥) الماوردى (أبو الحسن على بن محمد ٤٥٠ هـ) : أدب الدنيا والدين ، ص ٢٢٩ ، تحقيق مصطفى السقا (طبعة رابعة ١٩٧٣ م) .

داخل الأثر الأخلاقي لطبيعة النفس وما دار حولها من بحوث، دون أن تربط هذا التصور لطبيعة النفس الإنسانية وعلاقتها بالقلب، دون أن تربط هذا كله بحقيقة الإنسان كما أراد الله له، وكما أرادها طريقاً للدور الذي حدده التصور الإسلامي لهذا المخلوق المكلف المسئول.

وكذلك أتت الجزئية إلى هذه المعالجات من تركيزها الشديد على الجانب الروحي والداخلي للإنسان، وكأنها بذلك - وما نظنها تقصد إليه - قد أهملت بقية الجوانب في هذا الكائن، لأنه كما نعلم ليس الإنسان إنساناً بروحه وحدها مع أهميتها، ولا بجسده وحده مع كونه مظهر الإنسانية المتميزة عن الحيوانية، ولا بعقله وحده مع كون آثاره أبرز ما يميز الحضارة الإنسانية، ومع أهميته في تفهم الدين فضلاً عن الدنيا، ليس الإنسان بواحد من هذه منفرداً ولكنه بهذه كلها ثم بالنفخة الإلهية التي أعطته إنسانيته.

وعليه فآية محاولة لخصر الإنسان داخل نطاق معين، مادياً كان النطاق أو عقلياً أو روحياً، فإنها محاولة محكوم عليها بالجزئية أولاً، ثم بالفشل ثانياً في تصور طبيعة هذا الإنسان.

ولست أعني بهذا الدفع لهذه المحاولات أن نلقينا في عرض البحر، ولكننا نفيد منها في مجالها دون أن نعتبرها مصدراً نستقي منه فكرتنا عن طبيعة الإنسان، لأن تصورنا لهذه الطبيعة يترتب عليه تصور آخر أكثر أهمية، هو تصور دور الإنسان، فبقدر شمولية معرفتنا بطبيعة هذا الكائن تكون شمولية دوره، والعكس صحيح.

* * *

دراسات في جسم الانسان

وإذا كانت المباحث النفسية حول طبيعة الإنسان لم تصادف كبير نجاح حتى في الجزء التجريبي منها، وشبهه بهذه النتيجة بحوث علم الأخلاق، فإن الأمر يختلف نسبياً بالنسبة للعلوم التي شغلت بجسم الإنسان ومكوناته، وإن كانت لاتزال أمامها كثير من علامات الاستفهام تحيرها وتضعها موضع المتحدى، رغم ما وصل إليه العلم في هذا المجال «فوق كل ذي علم عليم»^(١).

لكن هذه الدراسات - مع اعترافها بالقصور - قدمت الكثير عن جسم الإنسان ووصلت إلى نتائج صدقتها التجربة وأفادت الإنسان في هذا المجال، منها:

أن هذا الجسم يمتلئ بالخلايا التي تتنوع وتختلف وإن اتحد رافدها الأول، وإن هذه الخلايا لا بد من أن تتبادل الصلات. وعلى قدر هذه الصلات تتوقف صحة الإنسان أو مرضه، وقوته أو ضعفه. «فكل عضو وكل نسيج يخلق وسيطه الخاص على حساب بلازما الدم.. وتتوقف صحة كل واحد منا أو مرضه، سعادته أو تعاسته، قوته أو ضعفه، على ترتيب التبادل المشترك بين هذه الخلايا ووسيطها»^(٢).

ومنها أن هذا الجسم يتكيف ويتلاءم مع كل الظروف الجوية التي تحيط به بطريقة آلية، على عكس كثير من الحيوانات، ضخمت أو

(١) سورة يوسف، الآية ٧٦

(٢) الكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، ص ٩٧، تعريب: شفيق فريد، مؤسسة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٧ م.

هزلت ، ولعل في معرفة هذه الحقيقة ما يساعد الإنسان على اختراق حاجز الخوف من مكان أو بيئة لم يتعود العيش فيها من قبل « والجسم البشري يحتفظ بالنشاط العادي لمبادلاته الكيميائية في أشق الظروف المعاكسة ، فالتعرض للبرد الشديد لا يقلل من تفاعل الأغذية .. وتنهار درجة حرارة الجسم عند اقتراب الموت فقط .. وعلى العكس من ذلك تقلل الدبسة والراكون (حيوان أمريكي مفترس بحجم الهر) من تجديد خلاياها في فصل الشتاء وتراجع إلى حالة من الحياة أكثر بطئاً » (١).

هذا التكيف الذي يحققه الجسم لا يقوم به بعض الأعضاء أو الغدد دون بعض ، بل جميع الجسم بشقيه العضلي والعقلي يتكاتف كل ليحقق هذه المهمة « يسجل المنبه الذي يقع عليه من بيئته بواسطة جهازه العصبي ، وتقدم أعضاؤه الجواب المناسب على هذا المنبه .. ويناضل الإنسان في سبيل بقائه بعقله أكثر مما يناضل بجسمه . وفي هذا النضال المستمر لا غنى له عن عقله وورثته وكبدته وغدد الأندوكرين ، مثلاً أنه لا غنى له عن عضلاته ويديه ، وأدواته وآلاته وأسلحته » (٢).

وما قررته هذه البحوث من تكيف الجسم مع نفسه داخلياً ، ومع بيئته خارجياً ، ميزة تميز الإنسان عن غيره من الأحياء ، وإن كانت تدل بالقطع على مدى تعقد وتشابك هذه الخلاصات التي تكون الإنسان وتعطيه سمته المميز .

ومن أهم النتائج التي وصلت إليها هذه الدراسات تحديد العلاقة بين الجسم والعقل وتوقف كل النشاطين على الآخر ، فالنشاط العقلي والجسمي وجهان لشيء واحد ، يخطئ من يعتبرهما شيئين مختلفين ، ولعل في

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٩٩ (٢) المرجع السابق ، ص ١١٢

هذا رداً على أولئك الذين ينظرون إلى الإنسان من خلال الجانب الروحي أو العقلي فقط ، وعلى أولئك الذين ينظرون إليه يبحثون في طبيعته على أنه مادة جامدة لا تخرج عن نطاق الأرض وما يلبسها من عدم رفعة أو سمو « إذ أن الحقيقة لا تخرج عن أن الجسم والروح هما وجهان لشيء واحد ، استخلصتهما وسائل مختلفة وخلصات مختلفة أيضاً ، حصلنا عليها بعقلنا من وحدة وجودنا الصلبة .. والتناقض البادئ بين المادة والعقل يمثل فقط تعارض نوعين من الفنون . ولهذا فإن الغلطة التي وقع فيها (ديكارت) كانت اعتقاده بصحة هذه الخلاصات واعتبار لمادة والعقل شيئين مختلفين ، وقد كان لهذا التقسيم أثره البعيد في تاريخ معرفتنا بالإنسان » (١).

وهذه الأمثلة التي ذكرنا من نجاح الدراسات التجريبية والتشريحية لجسم الإنسان مؤشر طيب لتوفيق الإنسان في هذه الناحية أكثر من غيرها من الدراسات ، وقد أكد الفهم القرآني للآيات التي تتحدث عن الإنسان صحة هذه النتائج ، وليس غريباً أن تجد إشارات في أقوال المفسرين القدامى تنطق بذلك ، وإن كان علماء التشريح لم يقفوا عليها أول الأمر .

ولا أريد بذلك أن أتحدث عن صلة القرآن بهذه الدراسات أو صلتها هي به ، فذلك أمر يحتاج إلى بحث مستقل ، ولكنني أردت أن أشير إلى أن نجاح هذه الدراسات بجاء من تصديق القرآن لها ، ومطابقتها لواقع الملموس من جانب آخر ، ولا تناقض ، فالقرآن والكون بما فيه الإنسان آيات لله ناطقة بالحق المبين .

(١) المرجع السابق ، ص ١٤١

هل وضحت طبيعة الإنسان في تصور العلوم لها ؟ :

قد يوهم امتدادنا للنجاح الجزئي في الدراسات التي اهتمت بجسم الإنسان ، قسده يوهم أنها نجحت في تصور حقيق لطبيعة الإنسان يمكن أن يتحدد - بناء عليه - دوره ورسالته ، ولكن الحقيقة أن هذه الدراسات شأنها شأن الدراسات الإنسانية بعامه والنفسية على الأخص ، لم تقدم تصوراً يحتوي كل الإنسان بكل طاقاته وكل أبعاده ، وغلب على كل علم من هذه العلوم طابع الجزئية ومحاولة تفتيت الإنسان ، وحتى حين يحاول البعض الاعتذار عن هذا بأنه مجرد الدراسة ، نرد عليه اعتذاره ، لأنه لو كان الأمر كذلك لالتقت كل العلوم بكل نتائجها لتضع تصوراً للإنسان ، الله يعلم مقدار قربته أو بعده من الحقيقة . لكن ذلك لم يكن ، بل عمل كل علم بمنأى عن الآخر ، ظاناً أن الإنسان هو الجزء الذي يبحث فيه ، ولقد اعترف الدارسون المنصفون لعلم النفس أنه لا يزال بعيداً عن كبد الحقيقة ، بل ربما أدت بعض بحوثه إلى إهانة الإنسان والهبوط به إلى درك الحيوانية الغريزية ، الأمر الذي جعل علم النفس يتفوق شيئاً فشيئاً حتى صار نفسه داخل المنهج الوصفي للسلوك الإنساني ، فهو مراقب للواقع ، غير قادر على تفهم أسرارهِ وتفسير بواعثهِ (١) .

وإذا كان المنصفون من دارسي علم النفس وباحثيه قد صدقوا الله وأقروا بالعجز ، فإن لساناً يعبر عن الاتجاه الذي أصاب بعض النجاح يعترف بأن نجاحاتهم هذه لم تحل المشكلة ولم تجل الضباب عن حقيقة

(١) انظر في هذا : سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، ص ٨٥ ، طبعة المنظمات الطلابية ، ١٩٧٨ م ، وكذا د. مقدار يلجن ، د. يوسف القاضي : علم النفس التربوي في الإسلام ، ص ٢٢ - ٢٦ ، ومحمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ٢٧ و ٥٥ و ٦١ - ٦٣

الإنسان وإن كثرت حوله العلوم : « إن التشريح والكيمياء والفسولوجيا وعلم النفس والبيداجوجيا (فن التعليم) والتاريخ وعلم الاجتماع والاقتصاد السياسي ، لا تلم بجوانب موضوعها كلها ، والإنسان - كما هو معروف عند الاختصاصيين - أبعد من أن يكون الإنسان الجامد ، فالإنسان الحقيقي لا يزيد عن أن يكون رسماً بيانياً ، يتكون من رسوم بيانية أخرى أنشأتها فنون كل علم (١) ؟ ...

إنه - أي الإنسان - عبارة عن المواد الكيماوية التي تؤلف الأنسجة واختلاط أجسامنا ... إنه تلك الجبهة المدهشة من الخلايا والعصارات المغذية التي درس الفسيولوجيون (علماء وظائف الأعضاء) جوانبها العضوية ... إنه ذلك المركب من الأنسجة والشعور التي يحاول علماء الصحة والمصلحون أن يقودوه إلى الدرجات العليا أثناء نموه مع الزمن ... إنه ليس فقط ذلك المخلوق شديد التعقيد الذي تحلله فنوننا العلمية ، ولكنه أيضاً تلك التكهينات والميول ، وكل ما تنشده الإنسانية من طموح ومن ثم فإن فكرتنا عن الإنسان تختلف تبعاً لإحساسنا ومعتقداتنا (٢) .

وليس معنى هذا أن هذه العلوم لا تملك كثيراً من الحقائق عن الإنسان ، بل إنها تملك كنوزاً من الحقائق حوله ، ولكن هذه الكنوز لم تزد على أنها فهم لجزء من أنفسنا فقط « إننا لا نفهم الإنسان ككل .. إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة ، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا .. فكل واحد منا مركب من موكب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة .

وواقع الأمر أن جهلنا مطبق ، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على

(١) تأمل غموض العبارة لتفهم مدى التخييل الذي يعانيه كل أصحاب هذه التصورات .
(٢) الإنسان ذلك المجهول ، ص ١٦ و ١٧

أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب ، لأن هناك مناطق غير محدودة في حياتنا الباطنية ما زالت غير معروفة ^(١) .

وقد أدرك صاحب هذا الاعتراف خطأ وقع فيه العلماء منذ عصر النهضة ، فقد حبسوا الإنسان داخل كونيّات خلقها علماء الطبيعة والفلك ، لكنها مع ضخامتها ماديّات لا تتسع لهذا الإنسان ، لأنها تتعامل مع جزئه الخارجي ، أما داخله فنحن لسنا موجودين فيه .

ويذكر هذا الباحث ما يكاد يقترب من الحقيقة الإسلامية عن الإنسان حين يذكر أن هذا الإنسان عبارة عن شيء مادي ، كائن حي ، وبؤرة نشاط عقلي في وقت واحد ^(٢) .

هكذا تثبت كل هذه الاعترافات موقف العلوم من محاولة رسم صورة لطبيعة الإنسان يبنى عليها تصور دوره وأبعاد رسالته في الحياة. ولعل هذه الاعترافات - وهي من أصحاب هذه العلوم - وذكرها هنا من صميم المنهج العلمي ، حيث لا نأخذ آراء الناس من كلام أصحاب الرأي المخالف لهم . كما أن ذكر هذه الاعترافات قبل أن نذكر التصور الإسلامي للإنسان كطريق لتحديد دوره ورسالته ، يجعل النقطة الطبيعية ، حيث أنه ما دامت العلوم جميعها لا تملك أن تقدم تصوراً عن الإنسان يرقى إلى مرحلة اليقين ، وينأى بنفسه عن التجريح ، فإننا لابد باحثون عن مصدر آخر لهذا التصور لا يكون في العلم بالقطع ، ولكن يكون في الدين ، والدين عند الله الإسلام ، فلا طريق إلا أن نبحث عن التصور الإسلامي للإنسان كي نقذه من براثن الحيرة التي تستبد به وهو يبحث عن ذاته .

الإسلام وطبيعة الإنسان

بعد أن ثبت قصور العلوم - وباعترافها هي - عن إدراك حقيقي لطبيعة الإنسان ، غدا ضرورة أن يبحث لنفسه عن بيان حقيقي لطبيعته ليذكر دوره وينتشل نفسه مما يعاني من قلق واضطراب ، ولن يرضى الإنسان هذه المرة بتصور بشري يتسم بالنقص ويحتاج إلى التطور ، وإنما يرضيه أن يجد تصوراً مبرراً من قصور نظرات البشر في علومهم ، ولن يكون ذلك - بطبيعة الحال - إلا في تصور رباني يخالف في أصل تكوينه وفي خصائصه تلك التصورات البشرية ، ومن ثم لا يحتاج في ذاته إلى التطور والتغير ، فالذي وضعه يرى بلا حدود من الزمان والمكان ، ويعلم بلا عوائق من الجهل والقصور ، ويختار بلا تأثر من الشهوات والانفعالات . ومن ثم يضع للكينونة البشرية كلها ، في جميع أزمانها وأطوارها .. أصلاً ثابتاً تتطور هي في حدوده وترتقي وتنمو وتتقدم ، دون أن تحتك بجدران هذا الإطار ^(١) . ولن يجد الإنسان ضالته هذه إلا في الإسلام ، دين الله الذي ارتضاه للناس ، مستوعباً كل ماسبقه من مراحل الإعداد للبشرية ، وتقضي هذه الخاصية فيه ألا يقبل دين غيره في الدنيا ولا يصير لغير معتنقه جزاء في الآخرة على أي عقيدة تكون « إن الدين عند الله الإسلام » ^(٢) ، « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ^(٣) .

وحاجة الناس إلى عقيدة في الإنسان والإنسانية تحم عليهم أن يأخذوها من الإسلام بعد أن عجز غيره عن تقديمها علوماً أو مذاهب

(١) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، ص ٦٦ و ٦٧

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩ (٣) سورة آل عمران ، الآية ٨٥

(١) المرجع السابق ، ص ١٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٥٧ و ٣٥٨

نكرية أو عقائد مشوهة ، فليست مذاهب الفكر البشرى بأسعد حالا ولا أكثر توفيقاً من علوم الإنسان . فالمادية التاريخية تنظر إلى الإنسان على أنه عملة اقتصادية في سوق الصناعة والتجارة ، تخضع بالضرورة لقانون العرض والطلب » وأما الإنسانية فقد أنصتت إلى المادية التاريخية فقالت لها : إنها شيء لا وجود له مع طوائفها التي تخلقها الأسعار والأجور» (١) .

ولم تكن الفاشية بأكثر وضوحاً ولا تكريماً للإنسان من المادية ، فالإنسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود ، وأبناء الإنسانية جميعاً عبيد للعنصر السيد ، والعنصر السيد عبد للسيد المختار بغير اختيار . أما النزعة العقلية فقد قررت الإنسانية وهماً من أوهام الذهن ، وأن الشيء الموجود حقاً هو الفرد الواحد .. وبرهان وجوده حقاً أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى كلما أمن المغبة من سائر الأفراد والأحداث (٢) .

وما سمعه الناس من أهل العقائد الإلهية (أعني العقائد السماوية التي حرفها الناس) عن الإنسان ومكانته من الأرض والسماء ، لا يختلف كثيراً عما سبق ، فصحيح أن الإنسان في نظر هذه العقائد روح وجسد ، لكنه ينجو شطر بمقدار ما يهلك شطره الآخر .

وقد سمع الناس أن الإنسان يولد بذنوب غيره ، ويموت بذنوب غيره ، ويرأى من الذنب بكفارة غيره ، ويمضي بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار لا نصيب له فيها من عصيان أو طاعة ، ومن إباء أو اختيار (٣) .

(١) العقاد : الإنسان في القرآن ، ص ٢٢٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٢١

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٢

لكن البشرية تسمع - إن عقلت - من القرآن غير هذا ، فتفهم أن الإنسان في القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله .. يدين بعقله فيما رأى وما سمع ، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب ، ولا تدركه الأبصار والأسماع . والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة ، لها نسب واحد ، وإله واحد ، أفضلها من عمل حسناً ، واتفق سيئاً ، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه (١) .

إذن لابد للبشرية أن تعلم أن طبيعة الإنسان في نظر الإسلام طبيعة بها ازدواج ضروري ، ففيها حقيقة الروح السماوية السامية ، وفيها حقيقة المادية الأرضية « وبدأ خلق الإنسان من طين .. ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » (٢) ، « فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٣) .

وقد نتج عن طبيعة هذا التركيب العجيب غرائز وصفات ترجع بعضها إلى الطبيعة الروحية ، وترجع بعضها إلى الناحية المادية ، وترجع بعضها إلى خاصية هذا التركيب ، ومن ثم فإننا نجد هنا صفات أكثر من حجم التركيب بكثير ، وليس هذا بغريب من الناحية الواقعية ، في ميدان التركيب الطبيعي ، إذ أننا نجد في هذا الميدان أن الكل ليس مجرد مجموع أجزائه ، بل قد تكون هناك صفة أو صفات زائدة تنشأ من تركيب أجزاء معينة ، فالماء مثلاً يتركب من الأيدروجين والأكسوجين ، وبالرغم من ذلك فهو في شكله وخصائصه العامة مختلف عن مجموع وخصائص هاتين المادتين ، ولو حللناه إلى مادتين يفقد الماء طبيعته ، ولا يبقى هناك ماء . وهذه فكرة انتهت إليها الدراسة الحديثة (٤) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٢٢ (٢) سورة السجدة ، الآيات ٧ - ٩

(٣) سورة الحجر ، الآية ٢٩

(٤) د . مقداد يالجن : علم النفس التربوي في الإسلام ، ص ٢٨ و ٢٩

ولعل أهم ما يميز نظرة الإسلام إلى الطبيعة الإنسانية أنه يأخذ الكائن البشري على ما هو عليه ، لا يحاول أن يقسره على ما ليس من طبيعته كما تصنع النظم المثالية ، والإنسان في نظر الإسلام كائن ، لا هو بالملك ولا هو بالشیطان ، وإن كان قادراً في بعض حالات الهبوط أن يصل إلى درجة الشيطان من الشر ، وفي بعض حالات الارتفاع أن يسمو بروحه إلى مستوى الملائكة من الطهر .

ويعترف الإسلام بمكونات هذا الكائن ، فهو يقدر أن في الإنسان جسماً وعقلاً وروحاً ، ولكل مطالبه ، ويجب الاستجابة إليها مباشرة دون مواربة أو إنكار . ويعترف الإسلام للجسد بخصائصه ونوازعه الفطرية ، وهي الشهوة الجارحة التي لا تهدأ ولا تكف ، ويعطيه حق حفظ الحياة على الأرض بالمحافظة على ذاته ونوعه ، ويقر أن يتحقق هذا أو ذاك بالطعام والشراب والنسل والإكثار . وقد شاء الله أن تكون مطالب الجسد لها صفة العنف والإلحاح ، ولذا ينظم الإسلام إشباعها بضوابط وقوانين تنمي الإنسان ولا تظلم الحياة . وشاء الله أن يكون العقل طريقاً لأفضل الوسائل التي تستجيب للنوازع الفطرية والتغلب على عقباتها بروية وتدبر ، ثم كان له أن يزرع للمعرفة وكأنها في ذاتها هدف مقصود به ترقى الحياة وتتقدم .

وشاء الله كذلك أن تكون الروح - التي لا يؤمن بها الماديون - إحدى وسائل ارتفاع الإنسان بالحياة ، ثم هي تتصل بالقوة الخفية في هذا الكون ، فتستلهم منها النور الذي لا تراه الحواس ولا يدركه العقل ولكنه موجود بالرغم من ذلك ، وبهذا النور العلوي تستطيع الروح أن تسمو ، فتعاون الكائن البشري على تحقيق هدف الحياة من الارتفاع^(١).

(١) محمد قطب : الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ٨٠ - ٨٤

ولا يرى الإسلام وهو يقر هذه القوى على وجودها مثلما رأى غيره من الانقسام بينها ، فالذات الإنسانية أعم من هذه القوى : (النفس والعقل والروح) حين يذكر كل منها على حدة . « ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في الذات الإنسانية وعمل كل منها في القيام بالتكليف وتمييز الإنسان بمنزلة الكائن المسئول . فالإنسان يعلو على نفسه أو بعقله ، أو يعلو على عقله بروحه ، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية ، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم ، وعلمه عند الله »^{(١) - (٢)} .
وبعد :

تلك كانت محاولات علوم الإنسان لاكتشاف حقيقة هذا المخلوق ، ولم تظفر بمحاولاتها تعريفه أو ببيان طبيعته بنجاح يذكر ، الأمر الذي قضى على نتيجة هذه المقدمات - وهي تحديد دور هذا الإنسان في الحياة - بالفشل أو العجز والقصور . وغدا ضرورة منهجية لصالح قضية الإنسان أن نأخذ حقيقة هذا الكائن من دين الله الذي خلق الإنسان وهو أعلم به .

وهنا لابد أن نلفت النظر أن كثيراً ممن عاجلوا حقيقة الإنسان في الإسلام ، ركزوا بحشهم وجل اهتمامهم على مظاهر تكريم هذا المخلوق ، وكيف أن الله جملة في خلقه ، وسخر له الكون ، ومنحه العقل ، وحرية الاختيار ، وحباه بإرسال الرسل ، وكل هذا حق لا محالة ، لكن

(١) العقاد : الإنسان في القرآن ، ص ٢٤٩

(٢) لم نرد أن نبسط في بيان طبيعة الإنسان في الإسلام ، لأن ذلك سيتضح من خلال المباحث التالية بصورة تشي الغليل إن شاء الله . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم نرد أن نفرق في آراء الفلاسفة والمتكلمين حول خيرية أو شرية هذا الإنسان .

تكریم الله للإنسان

من طبائع الأشياء أن تحمل الصنعة صفة الصانع ، وتعالى الله عن أن تحكمه ، فهموم البشر وتصوراتهم ، لكنه سبحانه أخبر عن نفسه بأنه القادر ، الحكيم ، الخبير ، فجاء خلقه يحمل سره وأمره ، فلن تجد في عالم الخلق بكل ما يحوى من الذرة إلى المجرة ، لن تجد إلا ما أخبر به سبحانه عن خلقه وإحكام صنعته ، من تقدير وتنظيم واتزان وترتيب وإحكام ، وفي كل هذا يلمس العقل السليم أثر رحمة الله بعد قدرته ، وما حاوله العلم خلال رحلته الطويلة في استكشاف بعض قوانين هذا الكون ، إنما جاء دليلاً جديداً على صدق ما جاء به القرآن الكريم ونزل على الرسول الكريم منذ أربعة عشر قرناً من الزمان (١).

وهذه بعض الآيات التي تتحدث عن خلق الله ، يقول سبحانه :

« إنا كل شيء خلقناه بقدر » (٢).

« وخلق كل شيء فقدره تقديراً » (٣).

« وكل شيء عنده بمقدار » (٤).

« صنع الله الذي أتقن كل شيء » (٥).

« الذي أحسن كل شيء خلقه » (٦).

(١) نديم الجسر : قصة الإيمان ، ص ٢٩٧ و ٢٩٨ ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ م ، منشورات المكتب الإسلامي ببيروت .

(٢) سورة القمر ، الآية ٤٩ . (٣) سورة الفرقان ، الآية ٢ .

(٤) سورة الرعد ، الآية ٨ . (٥) سورة السجدة ، الآية ٧ .

(٦) سورة الملك ، الآية ٣ .

الترتيب على هذا الجانب ظلم لحقيقة الإنسان ، فالإنسان في الإسلام
الإنسان المتكلمة المسئول الذي حمل الأمانة ، وخلق الخلافة والعبادة
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهذه السمات هي حقيقة
طبيعته . لذا فلا بد من البدء بكونه مسئولاً ، ولا بد من فهم التكريم
الذي يغلب الأبعاد وبين المسئولية التي تنوء بحملها الإنسان
وفهم هذه الصلة بآمال يحدد لنا الطريق الذي يحقق الإنسان
إنسانيته ، ويبين كذلك أن الإحاطة في هذه المهمة ينحى عن الإنسان
صفة الإنشائية حتى ولو بدأ الناس في شكل إنسان ينطق ويحرك
وسوف تكون أيضاً كم يكون الخلق الذي يعود على الحياة حين يولد
الإنسان من منطق المسئولية تجاه الحياة .

والعكس صحيح .
ومع إيماننا بأن الله تعالى هو الخالق والمقدر
مبدأ الحديث عن مظاهر تكريم الله للإنسان ، لأنها ملموسة وكثر
إلى النفس من جهة ، ولأنها تأخذ بيدنا إلى بداية منطقية الحديث
للمسئولية حيث تلقى سؤالاً حول التكريم والتميز لهذا المخلوق دون غيره
مخلوقات الله ، ومحاولة الإجابة عليه هي نص في المسئولية التي
حقيقة الإنسان .

« ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » (١) .

وهذه الآيات تؤكد أن خلق الله للأشياء محكوم بقضائه هو وتقديره سبحانه ، وأن الصفة الغالبة والحاكمة لوصف كل مخلوقات الله هي الإحكام ، والإبداع ، والإتقان بما تتناسب مع هذه المعاني وقدره الذات الإلهية وحكمتها وإحاطتها بكل شيء علماً . فإذا جاء القرآن بعد إثبات هذه الحقيقة ليقرر تكريماً صريحاً للإنسان في خلقه ، وفي تسخير الكون له ، وفي هدايته بالرسول ، حتى لا يضل العقل أو يشقى الإنسان ، أقول حين يقصد القرآن إلى هذا قصداً ، فإنما هو التكريم الإلهي للإنسان الذي يتطلب شكراً وبصراً بما من أجله كان هذا التكريم .

وقد تناول القرآن هذا التكريم في مناسبات عدة ، وبأساليب متنوعة ، وكلها يعطي دلالة أكيدة لمركز هذا الكائن ومسئوليته في الحياة .

فقد جاء التكريم باللفظ العربي الدال على ذلك ، مقروناً بلفظ التفصيل على كثير من خلق الله ، يقول سبحانه : « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » .

ويبرز في الآية (كرمنا) تضعيف كرم ، أي جعلناهم شرفاً وفضلاً كما يقول القرطبي ، وهذا هو كرم نقي النقصان لا كرم المال ، وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة ، وحسن الصورة ، وحملهم في البر والبحر ، مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧٠ .

أن يكون متحملاً بإرادته وقصده وتقديره ، وتخصيصهم بما خصهم من المطاعم والمشارب .

ويذكر القرطبي مناحي للتكريم ذهب إليها العلماء والمفسرون ، كالنطق والتمييز ، واعتدال القامة وامتدادها ، وحسن الصورة ، وتسلطهم على سائر الخلق وتسخيرها لهم ، والكلام والخط والفهم ، والتمييز ، وغير هذا من مظاهر التكريم التي رأى فيها هذا المعنى .

ثم يقول : « والصحيح الذي يعول عليه أن التفصيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف ، وبه يعرف الله ويفهم كلامه ، ويوصل إلى نعيمه ، وتصديق رسله ، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل ، وأنزلت الكتب ، فشال الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء » (١) .

وإذا كان الإمام القرطبي يركز على العقل لأنه سر التكليف ، فإن الحق أن النص يتسع لكل ألوان التكريم التي أشار إليها المفسرون ، بدليل الآيات التي تفصل القول فيما ذهبنا إليه ، ببيان صور عديدة للتكريم كما سيجيء إن شاء الله .

ولا ينبي الإمام القرطبي تفسيره لهذه الآية حتى يبين أنه ليس يلزم من الآية تفضيل الملائكة على الإنسان ، لأنهم خارجون أساساً من الكثير المفضل ، والآية تعدد نعم الله على بني آدم مما اختصهم به دون سائر الحيوانات ، وأما الجن فهو الكثير المفضل : « وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً » (١) .

(١) القرطبي : تفسير الجامع لأحكام القرآن ، المجلد الخامس ، ص ٢٩٤ ، نشر المكتبة العربية ، مصر ، ١٩٦٧ م .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .

من هنا كان الإنسان - بجنسه - مخلوقاً مكرماً على سائر الخلائق في الأرض ، مستخلفاً من الله ، محفوفاً بالرعاية وتهيئة الحياة له . « ومن ثم فليست هناك قيمة مادية في هذه الأرض تعلو على قيمة هذا الإنسان أو تهدد من أجلها قيمته » (١) .

وإذا كنا نرى عموم التكريم كما جاء به اللفظ القرآني فإننا من خلال نصوص القرآن نرى أن مظاهر هذا التكريم تبدت في مكونات الإنسان ذاته ، وهي تشمل : الخلق والتسوية ، والعقل ، والإرادة الحرة كما تبدت في تهية الحياة للإنسان وتيسيرها لأدائه دوره ، وفوق كل ذلك كان التكريم بإرسال الرسل لترشيد مسيرة الإنسان وتعامله مع هذا الكون .

(أ) في مكونات الإنسان ذاته

لعل أبرز مظاهر التكريم الإلهي للإنسان كانت في حديث القرآن عن خلقه ، وما تناول القرآن خلق كائن من مخلوقات الله بنفس التفصيل الذي تناول به خلق الإنسان ، ولعل هذا - إلى جانب دلالاته في التكريم - كان واحداً من الأسباب التي حفزت العلماء إلى عديد من الدراسات للوصول إلى ما يمكن للوصول إليه من أسرار ذلك الكائن العجيب . ونحن في معالجتنا لهذه النقطة ننطلق من فهم مؤداه أن هذا الإنسان مكون من جماع الجسم والعقل والروح أو النفس ، وأن ذات الإنسان كإنسان شيء زائد على هذه الأجزاء كما سبق أن أشرنا ونحن نتناول بيان الإسلام لطبيعة الإنسان . لكن توضيح مظاهر التكريم الإلهي في خلق الإنسان يقتضى تجميع النصوص والفهوم الدالة على كل جزء من الإنسان ، ومجموعها يكون في ذهن المسلم ما أبرزه

(١) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٢٤

القرآن من تكريم . ووفق هذا الفهم نعرض مظاهر تكريم الله للإنسان كما يلي :

١ - الخلق والتسوية والمدرجات الحسية .

٢ - العقل كسر للتكليف .

٣ - حرية الإرادة كشرط أساسى للمسئولية .

١ - الخلق والتسوية

في مجال خلق الإنسان نتحدث آيات عن رعاية الله له جنيئاً ، في ظلمات ثلاث ، وتفصل بعضها مراحل خلقه ، وحفظ الله له في قرار مكين ، كما نتحدث آيات أخرى عن حسن الخلق والتصوير ، وتذكر حواس ضرورة للإنسان ، وفي كل ذلك يلمح التكريم الإلهي للإنسان .

يقول سبحانه : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفةعلقة فخلقناعلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظماً ، فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين » (١) .

« ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون » (٢) .

« هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ... » (٣) .

« يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق فى ظلمات ثلاث » (٤) .

(١) سورة المؤمنون ، ص ١٢ - ١٤

(٢) سورة المرسلات : الآيات ٢٠ - ٢٣

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٦ (٤) سورة الزمر ، الآية ٦

« هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنته في بطون أمهاتكم » (١).

« وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » (٢).

هذا ما يقوله القرآن في أمر خلق الإنسان ، في ظلماته الثلاث ، ومراحله من تراب إلى نطفة إلى علقة إلى مضغة ، إلى عظام يكسوها لحم ، فإذا تقول محاولات العقل البشري في تفهم هذا الأمر ؟

وهنا نقول إن المفسرين حاولوا - قدر ما فتح الله عليهم - أن يوضحوا معاني ما جاء في القرآن ، فكانت لهم أفهامهم التي تنفسر من خلال ألفاظ القرآن ، فحين يتعرضون لتفسير قوله تعالى : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » ، قال قتادة والسدي : (نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة ، ثم عظاماً ، ثم لحماً) . ابن زيد : (خلقاً من بعد خلق) خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر آدم ، وقيل في ظهر الأب ، ثم خلقاً في بطن الأم ، ثم خلقاً بعد الوضع . ذكره الماوردي ، (في ظلمات ثلاث) ظلمة البطن ، وظلمة الرحم ، وظلمة المشيمة . قاله ابن عباس وعكرمة ومجاهد وقتادة والضحاك . وقال ابن جبير : ظلمة المشيمة ، وظلمة الرحم ، وظلمة الليل . والقول الأول أصح . وقيل : ظلمة صلب الرجل ، وظلمة بطن المرأة ، وظلمة الرحم ، وهذا مذهب أبي عبيدة ، أي لا تمنعه الظلمة كما تمنع المخلوقين (٣).

(١) سورة النجم ، الآية ٣٢ (٢) سورة الحجر ، الآيتان ٢٨ و ٢٩

(٣) القرطبي : المجلد الثامن ، ص ٢٣٦ ، تفسير سورة الزمر .

وكأني بكل عقول المفسرين للقرآن تنطق بما تدل عليه آية منه ، وهي في لفظها أوضح من كل محاولات التفسير « هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء » .

وفي محاولة لتقريب معاني الرعاية الإلهية للإنسان جنيناً ، يأخذ العلم في بيان بعض صفات هذه المرحلة ، فما الذي يقوله العلم : بيضة مثل بيضة الدجاجة ولكنها أصغر منها بكثير ، قطرها يتراوح بين جزء وجزءين من : ٢٤٠ جزءاً من القيراط ، أي جزء أو جزءين من عشرة أجزاء من المليمتر ، ووزنها جزء من مليون جزء من الغرام ، وفيها (مح Cytoplasme) وفي المح (الحويصلة الجرثومية Noyau) التي يبلغ قطرها جزء من (٧٠٠) جزء من القيراط .. وفيها تكمن النقطة الجرثومية (Nucleole) التي يبلغ قطرها جزء من ثلاثة آلاف جزء من القيراط ... هذه البيضة في ظلمة المبيض ضمن حويصلة تسبح في سائلها الألبوميني .. فإذا نمت هذه الحويصلة وازدادت السائل الذي في باطنها يتمدد غشاؤها ويرق ، ثم ينفجر وتخرج البيضة منها ومن البيض كله .. فإلى أين تذهب ؟ إنها على موعد مع العشير الذي تحلم به من غير أن تعرفه ولا يعرفها ، فهي تسعى إليه وهو يسعى إليها ، ويتلاقيان في الطريق ، ثم يسيران متعانقين ، متزاوجين ، إلى بيت الزوجية الأمين المهيأ لها ليصنع فيه من نفسيهما بشراً سوياً (١).

وفي هذه المرحلة الدقيقة من حياة هذا الكائن (الإنسان) تتشكل وتتخلق قدرات هذا الإنسان « ثم أنشأناه خلقاً آخر » . وهنا يحاول العلم أن يقدم بعض العبارات عليها تخدم في فهم هذه الرعاية الإلهية

(١) نديم الجسر : قصة الإيمان ، ص ٣٧٩ و ٣٨٠

للإنسان : « وثم ظاهرة غريبة تحدث في الجنين ، تلك أن العقل يجعل جزءاً منه (كذا) العصب البشري وشبكية العين ، وتطلق الإحساسات المختلفة نحو سطح الجسم ، كما يتعرض جزء الجلد الذي يغطي الشبكية الصغيرة لتعديلات مدهشة ، إذ يصبح شفافاً ، ويكون القرنية والعدسات الشفافة ، التي تطلق عليها (العين) . وهكذا يمكن العقل من تسجيل الموجات الكهربائية ، المغناطيسية ، التي تتراوح فيما بين الحمراء والبنفسجية ، وهناك شعيرات عصبية لا عددها تشع من هذه الأعضاء وتربطها بالسلسلة الفقرية والمخ . وعن طريق هذه الأعصاب ينتشر الجهاز العصبي مثل شبكية العين ، فوق سطح الجسم كله حيث يتصل بالعالم الخارجي ، وتتوقف نظرة الإنسان للعالم على تكوين أعضاء الحس ودرجة حساسيتها » (١) .

ولا نذكر محاولة العلم هذه إلا دليلاً على أن عظمة الخلق ، وكرام الرعاية الإلهية ، حثت العقل البشري على أن يفصل القول - من خلال تجربة واجتهاد - في كيفية هذا التكريم ، وإن كانت في الحقيقة لم تصل إلى بيان حقيقة كيفية تكريم الله للإنسان وقدرته على ذلك ، بقدر ما أشبعت فضولاً لدى الإنسان ، يرضى به غروره ، ويقنع به نفسه .

التسوية والنفخ

وحين يحاول العقل البشري أن يتناول التسوية ونفخ الروح والأمر بالسجود ، يتناولها مع اختلاف مداخل الناس ، لكنهم في مجموعهم يتوهون في دلالة الألفاظ ، وربما اكتفوا بهذا ، فيقول بعض المجتهدين أن النفخ إجراء الريح في الشيء ، والروح جسم لطيف أجرى الله العادة

(١) الكسيس كاريل : الإنسان ذلك المجهول ، ص ٨٣

بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم ، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خلقه إضافة إلى نفسه تشريعاً وتكريماً كقوله : (أَرْضِي وَسَمَائِي وَنَاقَةَ اللَّهِ ، وَشَهِرَ اللَّهِ وَمِثْلَهُ « وَرُوحٌ مِنْهُ » ... وَالنَفْسُ وَالرُّوحُ اسْمَانِ لِمَسْمًى وَاحِدٍ « فَفَعُوا لِلَّهِ سَاجِدِينَ » أَيْ خَرُّوا لَهُ سَاجِدِينَ ، وَهُوَ سَجُودٌ تَحِيَّةٌ وَتَكْرِيمٌ لَا سَجُودَ عِبَادَةٍ ، وَلِلَّهِ أَنْ يَفْضَلَ مَنْ يَرِيدُ ... » (١) .

ولعلنا نلاحظ لأول وهلة أن الإمام القرطبي لم يتعرض لبيان كيفية التسوية أو النفخ الإلهي ، وهذا ما يجب أن يعرفه كل مسلم فلا ينساق إلى التخمين ويذكر أن التسوية الإلهية هي إتقان كما نتقن أعمالنا ، وأن النفخ في خلق آدم من الطين كالنفخ عندنا بالأفواه ، وأن طينة آدم كطينة التمثال الطيني يصوره المثلون ، ذلك لأن أعمال الإله جل وعلا تنزهت عن مشابهة الأعمال الآدمية وعن كل عمل محدود من أعمال المخلوقات .

والأمر كذلك بالنسبة للروح ، فليست بالقطع الروح الإنسانية ، وليست بالكيفية التي تحددها القواميس والمعاجم ، لأن روح الإنسان المخلوق مجهولة ، يعلمها الله وحده ، كما نفهم من آيات القرآن .

وعليه فإن محاولة تحديد وقت للتسوية أو النفخ إنما هو ضرب من التخمين يجب أن ينأى عنه المسلم « وعلى المسلم أن يؤمن بأن الله تعالى بث روح الحياة في الطين ، وسوّى الطين وخرج منها آدم عليه السلام ، ولكن ليس لأحد أن يفرض عليه كيفية التسوية ، والنفخ والخلق يلغى كل ما عداها ، وأن يقرر للتسوية والنفخ والخلق وقتاً محدوداً باللمحة

(١) القرطبي : المجلد الخامس ، ص ٢٤ ، تفسير سورة الحجر . (٥)

أو اليوم أو الدهر ، ويكون بمقدار واحد ولا يكون بغير ذلك المقدار ^(١).

وهنا يجدر بالمسلم أن يعي أن كلمة الروح وردت في القرآن بأكثر من معنى ، وقد كان نفخ الروح من قبيل ولادة عيسى عليه السلام « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه » ^(٢) ، وكان من آياته أن يتمثل لها بشراً سوياً : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً » ^(٣) ، وكان الروح وحياً ومصدرراً للوحي « نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين » ^(٤) ، كما كانت سرراً محجوباً على علم بني آدم في جميع هذه الأحوال ^(٥). وهكذا يجب أن يعرف العقل قدره ، وحسبه أن يفهم من معنى التسوية منسوبة إلى الله سبحانه « فإذا سويته » ، ونفخ الروح منسوباً إليه سبحانه « ونفخت فيه من روحي » ، والأمر للملائكة بالسجود لهذا الجزء الإلهي في الإنسان ، حسبه أن يفهم من هذا ومن مراحل الخلق والتكوين تكريراً يوجب الشكر ويقضي بالمسؤولية .

وصوركم فأحسن صوركم

وهناك آيات عديدة تتحدث عن خلق الإنسان بعامة ، وأن الله صورته فأحسن صورته ، وفيها معنى التسوية الإلهية وقدرته الخالق سبحانه ، فكل آيات الخلق تنطق بأنه سبحانه خلق فسوّى ، وقدر فهدى ، وصوّر الإنسان على خير وجه . يقول سبحانه :

(١) العقاد : الفلسفة القرآنية ، ص ١٩٧ - ٢٠٠

(٢) سورة النساء ، الآية ١٧١ (٣) سورة مريم ، الآية ١٧

(٤) سورة الشعراء ، الآيتان ١٩٣ و ١٩٤

(٥) العقاد : الفلسفة القرآنية ، ص ١٩٩

« خلق السموات والأرض بالحق وصوّركم فأحسن صوركم » ^(١) .
يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك ^(٢).

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » ^(٣) .
الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ^(٤) .
وإذا كانت الآيات السابقات تحدثت عن مراحل الخلق الجنيني وما بها من الخفاء فإن هذه الآيات وما يماثلها مما لم نذكر تبرز العناية الإلهية بشكل الإنسان وتركيب أعضائه وتناسقها بما يمكنه من أداء دوره الذي أراده الله له ؛ فهي تفيد أنه سبحانه « صوركم فأحسن صوركم » أى حسن أشكالكم ، كقوله تعالى : « يا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسوّاك فعدلك في أى صورة ما شاء ركبك » ^(٥) .

وقوله تعالى : « الذي خلقك فسوّاك فعدلك » أى جعلك سوياً مستقيماً معتدلاً القائمة منتصباً في أحسن الهيئات والأشكال ^(٦) ، وهو نفس المعنى لقوله : « في أحسن تقويم » . وقد اتسعت دلالة ألفاظ حسن الخلق والتصوير « أحسن تقويم » لتشمل كل ما من شأنه أن يسهل للإنسان أداء دوره ، فاعتدال القائمة ، والقدرة على العمل والإرادة والعقل والفطنة والجمال . كل هذه معان وإن تبدت مركزة على خلق جسد الإنسان ، فإنها توحى إلى هذا المخلوق المسئول أن خلقه إعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة

(١) سورة التين ، الآية ٣ (٢) سورة الانفطار ، الآية ٧

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١١ (٤) سورة السجدة ، الآية ٧

(٥) ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، المجلد الرابع ، ص ٣٧٤ ، طبعة دار الفكر

(٦) المرجع السابق ، ص ٤٨٦

الغيب ، عسى أن ينظر في الخلق فيرى فيه آثار الخالق الذي لا تدركه الأبصار والأسماع^(١).

وقد استحثت هذه الحقائق القرآنية فضول العقل البشري فراح يجري بحوثه ويعقد تحليلاته ليرز ما في جسم الإنسان من عجائب ، فقررت هذه البحوث أن الجسم البشري حافل بالعجائب ، فبالرغم من أن مجرى الحياة فيه واحد إلا أنه يحوى دولا متنوعة عن طريق الفروع التي تأخذ من هذا المجرى الواحد . كما قررت تكيف هذا الجسم وتوائمه مع أشق الظروف المعاكسة له ، ولعل هذا لم يحظ به غير الجسم الإنساني ، وإن كان هناك ما يفوقه ضخامة وشراسة من الحيوانات .

كما قرر أن هذا التكيف الضروري لحياة هذا الإنسان والميسر لتقلبه ليؤدي دوره في عمارة الحياة ، هذا التكيف يقوم به الجسم كله : غدده ، وشرائبه ، والجانب العقلي فيه ، ويظهر في هذا الارتباط الشديد بين كل عضو وآخر في أداء مهمات حياة هذا الجسم مما يوضح مدى التكامل في التنسيق الداخلي لهذا الجسم ، ومدى قدرة الله سبحانه في أن الانشغال بهذا التكامل الداخلي لا يعوق حركة التكيف مع الخارج المادى والسيكولوجى ، « وتحت هذين الوجهين تعمل الوظائف التنسيقية في كل لحظة من لحظات حياتنا ... فهي إذن الأساس اللازم لبنائنا »^(٢) ، وما نظن أن العلم بكل ما أوتى من توفيق في هذا الجانب قد أضاف شيئا أوضح ولا أحق من قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » .

(١) العقاد : الإنسان في القرآن ، ص ٣٣٠ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول ، صفحات ٩٧ و ١٠٠ و ١١٢ و ٢٢٠ ، وانظر : أوجين شريدر : البيولوجية الإنسانية ، ص ٦٤ ، ترجمة د. خليل الجر .

منافذ الإدراك

وفي شمول المعنى القرآنى لقوله سبحانه : « وصوركم فأحسن صوركم » ، وما في معناها من الآيات ، في هذا الشمول إشارة واحتواء لكل ما يحسن به الخلق ، ويستقيم معه أداء المهمة ، ومن هذا منافذ الإدراك الحسى والقلبي ، ولكننا نؤثرها هنا بكلمات ، لنجلى معنى التكريم فيها والتميز ، فهى وإن وجدت نظائرها في الحيوانات فهى في الإنسان تعنى شيئا آخر وتؤدي دوراً مختلفاً إلى جانب أهمية وجودها في تيسير الحياة للإنسان ، فضلا عن تميزها . يقول سبحانه :

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »^(١).

« وهو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »^(٢).

« ولا تقتف ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا »^(٣).

« ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »^(٤).

« قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم ، وختم على قلوبكم ، من إله غير الله يأتيكم به »^(٥).

« ألم نجعل له عينين » ولساناً وشفقتين »^(٦).

(١) سورة النحل ، الآية ٧٨ (٢) سورة المؤمنون ، الآية ٧٨

(٣) سورة الإسراء ، الآية ٣٦ (٤) سورة السجدة ، الآية ٩

(٥) سورة الأنعام ، الآية ٤٦ (٦) سورة البلد ، الآية ٨ و ٩

وتلازم هذه الحواس في النسق القرآني يؤكد تكاملها وتذييل معظم أيها بطلب الشكر دليل على أهميتها وضرورة استخدامها فيما خلقت له ، ولعل هذا يفهم من الآيات التي ذكرت أن هذه المنافذ ستشهد على الإنسان يوم القيامة^(١) ، وأن الله سبحانه يعاقب غير المؤمنين بالطبع على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم^(٢) ، وهنا ينزلون عن سمو الإنسانية إلى درك أضل من الحيوانية البهيمية^(٣).

وهذا ما يقوله فهم الإمام القرطبي لمعنى آية من هذه الآيات ، قوله تعالى : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » . ذكر أن من نعمه أن أخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا لا علم لكم بشيء ، وفيه ثلاثة أقاويل :

إحداها : لا تعلمون شيئا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم .

الثاني : لا تعلمون شيئا مما قضى عليكم من السعادة والشقاء .

الثالث : لا تعلمون شيئا من منافعكم ، وتم الكلام . ثم ابتداء فقال : « وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » أى التى تعلمون بها وتدركون لأن الله خلق ذلك لعباده قبل إخراجهم من البطون ، وإنما أعطاهم ذلك بعد ما أخرجهم ، أى وجعل لكم السمع لتسمعوا بها الأمر والنهى ، والأبصار لتبصروا بها آثار صنعته ، والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته ، وقد قيل فى ضمن قوله : « وجعل لكم السمع » إثبات النطق ، لأن من لم يسمع لم يتكلم وإذا وجدت حاسة السمع وجد النطق ... « لعلكم تشكرون » فيه تأويلان :

(١) انظر : سورة فصلت : الآيات ٢٠ - ٢٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٧ ، وسورة النحل ، الآية ١٠٨ .

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ .

أحدهما : تشكرون نعمه . الثاني : يعنى تبصرون آثار صنعته ، لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر^(١) .

ويحاول العلم أن يتناول هذه الحواس الهامة بالبيان ، وإن كان بدءاً يقصر همه كعادته على الجوانب الفسيولوجية ، فيصف الأذن بأنها الجهاز المعقد التى توجد بها ترتيبات من البوابة الخارجية (الصيوان) إلى الصماخ السمعى ، إلى الغشاء الطبلى ، إلى الأذن المتوسطة ، إلى الأذن الباطنة ، إلى أعصاب السمع . ويقرر أنه لولا هذه الترتيبات لما أمكن وصول الصوت إلى الدماغ بشكل يحتمل أو مفهوم أبداً . فكل هذه الترتيبات إنما خلقت وأحكمت لأجل ترقية توزيع الاهتزازات الصوتية على وجه يقوى ضعفها ، ويضعف قوتها ، ليتلقى الجهاز السمعى كل رجة وصدمة ، ويشعر الإحساس باللطيف نغمة^(٢) .

كما يتحدث العلماء عن العين بقرنتيها وشبكيتها وجفنها وبؤبؤها وغير ذلك من قدرتها على تلقى الضوء والتكيف معه بما يبين وحدته القدرة والمواءمة للدور الذى يجب أن تؤديه العين فى حياة الإنسان^(٣) .

ونفس الشيء يتحدث العلم عن اللسان ، وكيف أنه الحاسة التى تؤدي وظائف متعددة ، فهو آلة الذوق ، وآلة المضغ والبلع والهضم ، وآلة الحس واللمس ، وآلة التكلم ، وهو من أجل تعدد وظائفه مهيبٌ بحكم خلقه الله القادر له ليؤدي هذه الوظائف مع تعددها دون تناقض أو اضطراب^(٤) .

(١) تفسير القرطبي : المجلد الخامس ، ص ١٥١ ، تفسير سورة النحل .

(٢) قصة الإيمان ، ص ٣٩٤ (٣) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٨٣

(٤) قصة الإيمان ، ص ٤٠٢

وحديث العلم عن القلب كعضلة تؤدي دوراً هاماً أبسط ما يوصف به أنه المصدر الظاهر للحياة الحيوانية التي تضمن استمرار أداء الدم لوظيفته بعد تنقيته وإعداده^(١).

إذا أضفنا إلى هذه المهام مهام أخرى لا تقل أهمية عن هذه من حيث أن هذه المنافذ والحواس لها دور غير الفسيولوجي ، لها دور مسئول في سماع أمر الله للبشر وفي تأمل وتفحص مخلوقات الله بالنظر البصري والبصيرة المدركة ، كما أن اللسان آلة التبليغ وعضو الحوار والإفهام ، الأمر الذي جعله يعلى صاحبه أو يدينه فيلحق به في الجنة أو في النار ، وكذلك القلب الذي اعتبر مقياساً في الشرع يستفتى حين تبلغ بالإنسان الحيرة ، وحين لا يجد نصاً فاصلاً فيما يفكر فيه .

أقول إذا أضفنا هذه المهام الإنسانية إلى ما قرره العلم الشارح والمراقب للوظائف الفسيولوجية لهذه الأعضاء كان لنا أن ندرك كم يكون تميز الإنسان وتكريمه بهذه الحواس ، فضلاً عن ضرورتها بالنسبة لتكيفه مع الحياة ، وأداء مهمته في الارتفاع بها ، والسمو بالإحياء فيها . وبهذه النظرة نكون قد وضعنا - حسب البحث - مظهراً من مظاهر تكريم الله للإنسان في تكوينه الذاتي ، وكان هذا الجانب مركزاً على ما يغلب عليه طابع الخلق الظاهر ، والحس المدرك ، وبقي أن تكمل الحديث عن مظاهر هذا التكريم في مكونات الإنسان ذاته حيث العقل ميزة الميزات ، وحيث الإرادة والاختيار ، وفي كل ذلك لا نجزيء الإنسان ، ولكننا نحاول أن نتفهم ميزاته .

٢ - العقل .. ميزة .. ومسئولية

لا يختلف اثنان في أن العقل قيمة كبرى ، وميزة عظمى ، حتى أن بعض الناس يفهم أن الإنسان كرم من أجل العقل لا بالعقل ، ولعل هذه القيمة الكبرى للعقل هي التي جعلت الإمام القرطبي يعتبر أن التفضيل الذي يعول عليه في قوله تعالى : « وفضلناهم » إنما يكون بالعقل الذي به تتم معرفة الله ، وتفهم كلامه ، وتصديق رسله . ويذكر هذه الأهمية مقرونة بأنه عمدة التكليف ، أقول لعل شيوع هذه الأهمية هو الذي حدا بالإمام القرطبي إلى هذا الفهم ، مع أن اللفظ القرآني لا يمنع التفضيل بغير العقل ، كما حكى هو عن الأئمة المفسرين^(١).

وقد اعتبر الراغب الأصفهاني أن العقل ميزة للإنسان في نفسه ، إلى جانب ميزات أخرى في جسمه « للإنسان فضل على الحيوانات كلها في نفسه وجسمه ، أما فضله في نفسه فبالقوة المفكرة التي بها العلم والعقل والحكمة والتدبير والرأي ، فإن البهائم وإن كان كلها يحس وبعضها يتخيل ، فليس لها فكرة ، ولا روية ، ولا استنباط المجهول بالمعلوم ، ولا تعرف علل الأشياء ولا أسبابها ، وليس في قوتها تعلم الصناعات الفكرية ... »^(٢).

وقد ذكر أن للعقل ميزة أنه يهدي إلى الفضائل وينفر من الرذائل ، ويعرف الخير من الشر ، وإن كان يرجع الحكم في نهاية الأمر إلى

(١) تفسير القرطبي : ٢٩٣ ، المجلد الخامس ، تفسير سورة الإسراء .

(٢) الراغب الأصفهاني ، الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ص ٨٣ ، تحقيق : د . أبو اليزيد العجمي ، الطبعة الثانية ، دار الوفاء - ١٤٠٨ هـ .

الشرع ، ومن هنا قالت الحكماء : « من لم يكن عقله في أغلب خصال الخير عليه كان حثفه في أغلب خصال الشر عليه » (١).

وإذا كان العقل وازعاً يعقل صاحبه عن الشر ويقلب النظر ويوازن بين الأشياء ، وهو كذلك رشد يميز بين الهداية والضلال ، وأخذ من الماضي للحاضر ، يعي ويتدبر ، أقول : وإذا كان كذلك ، فإنه « موصول بكل حجة من حجج التكليف ، وكل أمر بمعروف ونهى عن محذور » .

أفلا يعقلون ؟ أفلا يتفكرون ؟ أفلا يبصرون ؟ أفلا يتدبرون ؟ أفلا يتذكرون ؟ أليس منكم رجل رشيد ؟

إن هذا العقل بكل عمل من أعماله التي يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعينهم من أمر السماء والأرض ومن أمر أنفسهم ومن أمر خالقهم وخالق الأرض والسماء ، لأنهم « ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه » (٢) ، « أولم يتفكروا في أنفسهم ، ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق » (٣) .

والعقل بهذه المعاني ، وهذه المهام ، ميزة تميز الإنسان عن الحيوانات كلها ، ومسئولية تقوده إلى ما خلق من أجله ، وهو واسطة بين النفس التي تتصل بالغرائز ، وبين الروح التي تتصل بعالم البقاء وسر الوجود الدائم الذي علمه عند الله ، وكأننا بالعقل أداة ذات حدين ، وفي غالب أحوالها إذا استقامت تحكم النوازع وتقود إلى الخير (٤) .

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩ ، د. مقداد يالنجي : الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، ص ١٧١ ، مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٧٣ ، طبعة أولى .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩١ - (٣) سورة الروم ، الآية ٨ .

(٤) العقاد : الإنسان في القرآن ، ص ٢٣٣ - ٢٤٩ ، عبد الكريم عثمان : معالم الثقافة الإسلامية ، ص ١٨ .

العقل والشرع

نذكر بأن الإمام القرطبي حين اعتبر العقل هو التفضيل الذي يجب أن يعتبر دون ما عداه ، ذيل هذا بعبارة هامة هي : « إلا أنه لما لم ينض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب . فثال الشرع الشمس ، ومثال العقل العين ، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء » (١) . فالعلاقة بين العقل وبين الشرع علاقة تكامل ، لأن المنطلق أن الشرع الذي جاء في القرآن يحتاج إلى عقل يفهمه ، وأن هذا القرآن هو الذي أورد آيات الحث على النظر والتفكير والتدبر والاعتبار ، ومعناه أن هناك صلة بين العقل والشرع هي صلة أن كليهما أثر من آثار الخالق سبحانه « وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ولا يعارض بعضها » (٢) .

ولا يفهم من هذا أن العقل ند للشرع ، فالأمر غير هذا ، إذ الشرع جاء ليكون الأصل الذي يرجع إليه ، والميزان الذي يزن به العقل قراراته ومفهوماته وتصورات ، ويصحح به اختلالاته وانحرافات ، ويجب أن يعلم العاقلون أن العقل المبرأ من النقص والهوى لا وجود له في دنيا الواقع ، وإنما هو مثال (٣) .

والعقل بهذا ليس في موضع النفي أو الإهانة ، بل هو في موضع التكريم ، حيث لم يكلف فوق طاقته ، ولم يطلب إليه الضرب في مجالات يعلم إخفاقه فيها سلفاً . وإذا كان تاريخ الفكر الأوربي قد عرف الصراع بين العقل وبين الكنيسة حتى يعرف عصر التنوير « بعصر سيادة العقل » ، فإن هذا أمر يخصهم هم ، وإن حاولوا خبثاً منهم أن يعمموا

(١) تفسير القرطبي ، مجلد ٢٩٣٠٥ .

(٢) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢٩ .

(٣) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

هذا ويروجوا شائعة أن العقل لا يلتقي مع الدين^(١). ذلك أن الإسلام يعطى العقل مكانته في تفهم نصوص الكتاب والسنة وفق منهج يضمن عدم ضلاله أو انحرافه بأهوائه إلى حيث لا يريد النص دون أن يغمطه حقه في الاجتهاد فيما ليس فيه نص في حدود الإطار العام للمنهج الإسلامي في الاجتهاد وفي حدود دائرة القياس أو الاستحسان أو مصلحة الأمة^(٢).

وقد حاول ابن طفيل في قصته (حي بن يقظان) أن يبرهن على أن العقل مع قدرته على إدراك وجود الله من خلال آثاره في الكون ، مع إدراك هذا يعتريه العجز والكلال حين يحاول الدخول في ميادين فوق طاقته ، كالأزلية والعدم المطلق واللا نهاية والقدم والحدوث وغيرها . كما حاول أن يبين أن العقل والشرع يلتقيان عند نقطة واحدة في مجال الحق والخير والجمال ، وأن مخاطبة الشرع للناس على قدر عقولهم دون مكاشفتهم بالأسرار ، هي الخير كل الخير للناس ، وأن عليهم الالتزام بهذا الحد وترك التعمق والغلو^(٣).

فوقف الشرع من العقل موقف يتسم بالتقدير ، ولذا عدت حماية العقل من الضروريات الخمسة في الشرع الإسلامي ، وجاءت حمايته بسد الذرائع الموصلة إلى الإخلال به ، فكان تحريم المسكرات وما يحدث بالعقل خللاً ، فشرع حصد للخمر ، وتعزير في غيره ، وجعل في ذهاب العقل بالاعتداء الدية الكاملة ، لأن البشر بدونه أقل من سائر الحيوانات .

« ولم تختلف الديانات السماوية في حرمة المسكرات وما يؤدي إلى ضرر العقول ، ولا نكاد نجد الإهمال في أمر العقول إلا في الأمم

المتخلفة ، أما من أنعم الله عليهم بنور العلم والبصيرة فهم الذين يحافظون على العقول لتأخذ بهم إلى السعادة والأمان ، ولا يقدر النعم إلا العارفون بها^(١).

عقل الحضارة العصرية

يعرف من تاريخ الفكر الأوربي ما يسمى بعصر التنوير ، وهو من النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وفيه علت نبرة إحساس العقل بذاته كرد فعل للتناقضات التي بدت في سلوك الكنيسة في العصر السابق على هذا التحديد ، وحاولت هذه النزعة أن تعطى العقل مصير مستقبل الإنسانية فتجعله حكماً في كل قضاياها ليصبح سيداً لا ينازعه غيره الذي كان ينازعه من قبل وهو الدين « الكنيسة » .

وهذا الانفلات من كل قيد ، وإعطاء العقل السيادة المطلقة ، لا يتفق والعقل السليم ، فضلاً عن التناقض الذي يمكن أن يحدث حين تحكم العقل في كل شيء دون وضع مقاييس يتفق عليها ، وتبقى صحة هذه المقاييس رهناً بعقيدة المفكرين ، وما أشار إليه الموقف الإسلامي من ضرورة أن يرشد العقل بالوحي ، أحسن بعض الباحثين الأوربيين حين ذكر أن العقل في الحضارة العصرية غائب عن مجال الأخلاق ، ولذا فإن أمريكا مع تقدمها الطبي في بعض ولاياتها يزيد عدد المجانين عن عدد المرضى الموجودين في المستشفيات لأمراض أخرى ، وهذا له أثره في التعاسة وتفكك الأسر .

« إن الفساد العقلي أكثر خطورة على الحضارة من الأمراض المعدية التي قصر علماء الصحة والأطباء اهتمامهم عليها حتى الآن ... إن الصفة

(١) د. عبد العزيز السعيد : رعاية المصلحة ودور المفسدة ، ص ٥ ، بحث ألقى في كلية الشريعة وطبع على الاستنسل ، في الجزء الثاني من محاضرات قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الإمام ، ١٣٩٩ هـ .

(١) المرجع السابق ، ص ١٠٠ . (٢) الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، ص ١٧٠ . (٣) قصة الإيمان ، ص ٧٢ .

الغالبية على الفرد في الحضارة العصرية هي الإفراط في النشاط الذي يوجه كله نحو الجانب العلمي من الحياة .. كما يتصف الفرد بكثير من الجهل وحاد معين من الذكاء وأيضاً بنوع من الضعف العقلي الذي يتركه تحت تأثير البيئة التي يتفق وجوده فيها .. ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق» (١).

وإذا كان هذا هو رأى غير المسلمين فإن على المسلمين أن يفكروا مرات قبل أن يدعو إلى عقلانية مطلقة في نصوصنا وقضايانا .

العقل والعلم

لم يستطع العلم أن يحدد ماهية العقل ولا من أى مواد في الجسم يفرز ، ولا تزال كثير من قوانينه مجهولة عند العلماء ، وإن كانوا يعترفون بأن العقل هو الشيء الذي يميز الإنسان عن جميع الحيوانات الأخرى ، لكن بقية الأسئلة لا تزال حائرة دون جواب يرضى العقل أو العلم أو هما معاً (٢).

وليس معنى هذا أن العلم لم ينفذ نتائجاً في هذا المجال ، فقد أفاد حين أضاف حقيقة أن النشاط العقلي لا يزيد في تجديد الخلايا ، إذ يبدو أنه لا يحتاج إلى أى نشاط أو أنه يستهلك كمية ضئيلة جداً منه إلى درجة لا يمكن اكتشافها بواسطة فنوننا الحالية بالطبع .

إن من الحقائق التي تدعو إلى الدهشة أن التفكير البشري الذي غير سطح الأرض .. هذا التفكير البشري قد بلغ حد الإتقان دون أن يطالب بأى قدر يقاس من النشاط ، إن أقوى جهد يبذله تفكيرنا له

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٣٤

(٢) المرجع السابق : البيولوجية الإنسانية ، ص ٨٥ .

تأثير تافه على تجديد خلايانا ، وهذا التأثير لا يقارن بذلك التأثير الذي يحدثه تقبض عضلة الكتف عندما ترفع ثقلاً يزن جرامات قليلة» (١).

نعم يفيد العلم في هذا ، لأن ورود الفواصل المنتهية في القرآن بما يفيد العقل والتفكير والتدبر والتذكر وما شابه هذا كثيرة ، وكثرتها قد تبدو للذهن الخامل على أنها نوع من الإرهاق والمشقة ، فإذا علم هذه الحقيقة وهي أن العقل وأعماله لا يكلف الجسم شيئاً ربما نهض ، وبالنسبة لغيره من الواعين يدركون مدى مسئوليتنا في عقولنا وبعقولنا في تغيير هذه الحياة إلى أفضل مما يعلى شأنها وشأن الأحياء ، وذلك يكون بتفهم دور المسلم وإيجابيته التي اقتضت التكريم بالعقل ليعمل ويعمل ويعمل .

ولعل البحوث العلمية في مجال تأثيره وتأثره بالجسم ، وأنها وجهان لشيء واحد ، ومدى تأثر هذا العقل بالبيئة ومحتوياتها الثقافية ، وما يمكن أن يحدثه التعليم في هذا العقل ، لعل بحوث العلم في هذا الصدد تفيدنا في الاهتمام بالعقل وتربيته ومحاوله اختيار الجو الثقافي الملائم للعقل المسلم ، ليتكون من مكونات إسلامية تمنحه قدرته ومنهجه في التفكير أولاً ثم لا عليه بعد هذا إذا خالط غير هذه البيئات للدراسات والتوجيه ، وهو دوره المنوط به ما دام هو سر التكليف الذي يقضى بتحمل مسئولية الحياة والأحياء . وكل هذا دون أن تغفل جانب تنميته بالتعليم والمران ، وفي هذا كلام جيد تبسطه نظرة الإسلام إلى التفكير ، وحثه على العلم وموقفه من الاجتهاد ، وغير ذلك مما يتصل به ، ولا يتسع المقام هنا لتناوله وبسطه ، فوضعه بحث مستقل .

(١) المرجع السابق ، ص ٩٩

وبعد ، فهذا هو العقل مظهراً آخر للتكريم في مكونات ذات الإنسان ، وبهذا الجانب يتصل التكريم بالحرية والاختيار ، وهو نقطة حديثنا إن شاء الله .

٣ - حرية الإنسان

قضية ولا أبا حسن لها ، هكذا صور الفكر الإنساني قضية حرية الإنسان وإرادته التي تميزه عن سائر الأحياء ، وألقى المفكرون بعديد من الأسئلة تتضمن الاستفهام عن هل للإنسان إرادة حرة ؟ وهل هذه الإرادة تمارس فعلها أم أنها قوة كامنة في النفس كاستعداد فقط ؟ ومحاولة الإجابة عن هذه الأسئلة - من غير استناد إلى تصور إلهي - أظهر اتجاهات ثلاثة في هذا الصدد :

١ - اتجاه يحرم الإنسان من هذه الميزة ، فهو مجرد من حرية الإرادة بالقوة أو الفعل ، هو كالريشة في مهب الريح ، وداخل هذا الاتجاه نجد الجبرية من متكلمي المسلمين الذين يرون أن إرادة الإنسان بيد الخالق يتصرف فيه كما يشاء .

كما نجد من يرجعون هذا الجبر إلى قوة الطبيعة التي تجعلنا كعجلات في آلات كبرى وإن بدا في الشكل أن عقولنا تفكر (١) .

٢ - اتجاه يعطى الإنسان حرية فاعلة ، ونجد داخل هذا الاتجاه من يفكر في الأمر بطريقة عقلية كأرسطو و (كانت) ، ومن يفكر بطريقة دينية كالمعتزلة من متكلمي المسلمين الذين أعطوا للإنسان حرية ليتحمل مسؤولية الشر في العالم من جهة وليحمل مسؤولية التكليف بعامة من جهة أخرى ، فجعلوا قدرة العبد مخلوقة لله ، ثم يخلق العبد الأفعال بقدرته هو (٢) .

(١) د. زكريا إبراهيم : مشكلة الحرية ، ص ٥٥ نشر مكتبة مصر ، الطبعة الثانية .
(٢) د. مقداد يالجن : الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ، ص ١٩٨ ، نشر مكتبة

الخانجي بمصر ١٩٧٣ م .

٣ - اتجاه في الفكر الإسلامي حاول أن يقف الموقف الوسط ، فيقسمون الحرية نصفين : يعطون الإنسان نصفاً هو حرية الإرادة ، أما حرية التنفيذ فليست له ، فإن الله هو الذي يخلق الفعل الذي يختاره الإنسان ، وفي هذا الموقف نجد الأشاعرة والإمام الغزالي وابن مسكويه والماتريدية في حقيقة الأمر على اختلاف بعضهم في توضيح الأمر وتكييف رأيه الذي اختار (١) .

وإذا كانت هذه البلبلة في هذا الأمر سمة في الفكر بعامة ، فإن الذي أوقع المسلمين في هذه الهوة أنهم أثاروا القضية كما وجدت في الفكر اليوناني باتجاهاته ، كما أنهم وجدوا في القرآن آيات تعطي المشيئة المطلقة والفاعلة لله وحده ، وآيات تعطي للإنسان قدراً من الحرية ، وآيات تجمع بين هذا وذاك . فكان أن أخذ كل فريق الآيات التي تسند اتجاهه الذي مال إليه ، ومن هنا صنعوا المشكلة التي سميت بالقضاء والقدر ، وولدت مشكلة أخرى هي الخير والشر في هذا العالم .

وقبل أن نعرض فهماً إسلامياً لهذه القضية نذكر نماذج من الآيات التي أشرنا إليها :

١ - يقول سبحانه :

« ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها ، إن ذلك على الله يسير » (٢) .

« قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ (٢) سورة الحديد ، الآية ٢٢ (٣) سورة التوبة ، الآية ٥١

« قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم »^(١).

٢- ويقول سبحانه :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما أنفسهم »^(٢).

« بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره »^(٣).

« ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه »^(٤).

٣- ويقول سبحانه :

« كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * وما يذكرون إلا أن يشاء الله ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة »^(٥).

« إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً * وما تشاءون إلا أن يشاء الله »^(٦).

« أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم ، إن الله على كل شيء ، قدير * وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله »^(٧).

وإذا كان بعض المفكرين المسلمين قد قادهم هذا التنوع في الآيات إلى حيرة واضطراب ، وإن كان الدافع صحيحاً وهو محاولة تنزيه الله عن المثل والشبيه ، أقول إذا كان هذا قد حدث لما ذكرت من أسباب ، فإن الباحث لهذا الأمر من خلال التصور الإسلامى يدرك سعة

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٥٤ (٢) سورة الرعد ، الآية ١١

(٣) سورة القيامة ، الآيتان ١٤ و ١٥

(٤) سورة النساء ، الآية ١٦١ (٥) سورة المدثر ، الآيات ٥٤ - ٥٦

(٦) سورة الإنسان ، الآيتان ٢٩ و ٣٠

(٧) سورة آل عمران ، الآيتان ١٦٥ و ١٦٦

مفهوم القدر مع بيان المجال الذى تعمل فيه المشيئة الإنسانية فى حدود هذا القدر المحيط^(١).

فليست هناك فى الحقيقة مشكلة ، لأن قدر الله فى الناس هو قدره فى كل المخلوقات من حيث خلقه سبحانه لكل خلق وحدث ، ولكن قدر الله فى الناس يتحقق من خلال إرادة الناس وعملهم فى ذات أنفسهم وما يحدثونه فيها من تغيرات : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

وكون مرد الأمر كله إلى المشيئة الإلهية المطلقة لا يبطل هذا ولا يعطله ، فالأمران يجئان مجتمعين أحياناً فى النص القرآنى الواحد ، كما رأينا فى المجموعة الثالثة من هذه النماذج .

ونحن إنما نفترض التعارض والتناقض حين ننظر إلى القضية بتصور معين نصوغه من عند أنفسنا عن حقيقة العلاقة بين المشيئة الكبرى وحركة الإنسان فى نطاقها ، إلا أن المنهج الصحيح : هو ألا نستمد تصوراتنا فى هذا الأمر من مقررات عقلية سابقة ، بل أن نستمد النصوص مقرراتنا العقلية فى مثل هذه الموضوعات وفيما تقصه علينا النصوص من شأن التقديرات الإلهية فى المجال الذى لا دليل لنا فيه غير ما يطلعنا الله عليه منه .

وقد قال سبحانه : « فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً » .. كما قال : « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ، وهو سبحانه الذى يقول : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره » ، ويقول : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء »^(٢) ، وهو الذى قال فى الوقت نفسه : « وما ربك بظلام للعبيد »^(٣).

(١) سيد قطب : خصائص التصور الإسلامى ، ص ٢٠٧

(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٥ (٣) سورة فصلت ، الآية ٤٦

فلا بد إذن ، وفق تصور المسلم لإلهه وعدله وجزائه وشمول مشيئته وقدرته ، من أن تكون حقيقة النسب بين مدلولات هذه النصوص في حساب الله ، من شأنها أن تسمح للإنسان بقدر من الإيجابية في الاتجاه والعمل ، يقوم عليه التكليف والجزاء دون أن يتعارض هذا القدر مع مجال الإلهية المطلقة ، المحيطة بالناس والأشياء والأحداث . كيف ؟

كيفية فعل الله كلها ، وكيفية اتصال مشيئته بما يراد خلقه وإنشاؤه كلها .. ليس في مقدور العقل البشري إدراكها ، والتصور الإسلامي يشير بتركها للعلم المطلق ، والتدبير المطلق ، مع الطمأنينة إلى تقدير الله ورحمته وفضله (١) .

وقد ارتضيت نقل هذا النص مع طوله ، لأنه يقدم البداية الصحيحة لتصور الأمر على وجه يزيح من عقول الناس أن حرية الإنسان مشكلة أو أنها تراحم مشيئة الخالق سبحانه .

حريتنا واقع وضرورة

هي واقع يراه المثبت لها والمنكر ، ويلبسه الناس في التفريق بين أفعال تحدث لا إرادة لنا فيها ، وبين أفعال إرادية نختارها نحن ونتردد مرات ومرات حين نفاضل بين البدائل ، وهذه الأفعال الإرادية التي يبدو فيها جانب الاختيار واقع إنساني ما كانت الحياة كما رأيناها تسير بدونه ، بغض النظر عن كونه ميزة أو غير ذلك ، وبغض النظر عن الخلاف الذي أدير حوله (٢) .

وحق الذين ينكرون حرية الإنسان ويقولون إن الله سبحانه خلق للناس الحرية .. أي أنه اضطرهم أن يكونوا أحراراً مختارين ، حتى

(١) خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢٠٨ - ٢١٠

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ص ١٦٧

هؤلاء يعترفون بهذا الواقع ، فإنه إذا كان الله سبحانه قد اضطر الناس أن يكونوا أحراراً فقد أصبحوا أحراراً .. وهذا هو الذي يعيننا من الحرية كيفما كان السبيل إليها (١) .

وهذه الحرية التي خلقها الله للناس ، ليست كما يظن العبيون أنها مطلقة ، إذ لا يجوز أن يخلق الله للإنسان حرية إله فعال لما يريد ، وكذلك لا يخلق الله للناس حرية المساواة في الأقدار والأعمال ، لأن الأول محال والثاني يتعارض به قوام الموجودات في عالم الحدود .

فإذا لم تكن حرية الإنسان حرية إله ، أو حرية فوضى وتناقض ، لم يبق إلا الواقع ، وهي حرية الحظوظ المختلفة التي نراها في الحياة .

إذن هذا الواقع يشهد له العقل فيلتقي مع الإيمان بالغيب الذي يترسخ في النفس ، لأنه وافق الفطرة وحاجة الإنسان (٢) .

هذا واقعها .. أما ضرورتها فهي :

إن هذه الإرادة فارق حاسم بين الإنسان والحيوان ، وبها يتحمل الإنسان مسئوليته العظمى وهي مناط النظام الإسلامي كله ، فهي ميزة ميز الله بها الإنسان تتواءم مع دوره ورسالته ، إذ يستطيع مجالدة نفسه ومجاهدتها ، والاستعلاء على الغرائز المسفة ، بل هو ليس بإنسان إن لم يعمل على ضبط نفسه وشهواته ، وإذا كان الإنسان هو المخلوق الذي يرتقى بالحياة والأحياء من الضروري أن يحظى بحرية وإرادة تمكنه من الارتقاء بالإنسانية وتحقيق أهدافها العليا ، فهي بهذا ضرورة لرقى الحياة والتسامي بالأحياء وفي مقدمتهم الإنسان (٣) .

(١) الفلسفة القرآنية ، ص ١١٦٩

(٢) المرجع السابق ، ص ١٧١ ، الإنسان في القرآن ، ص ٢٥٧

(٣) الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ١١٤

وهي طريق للتكليف وشرط أساسى له ، يبرز فيها ما يحتاجه التبليغ والعلم والعمل كأسس لتكليف ، ولا يتصور مكلف بدون حرية يختار بها ويحاسب على أساسها ، ويستطيع بها أن يوازن في الهم والعزم والتفويض ، والإنسان بحكم وضعه بين الحيوان الذى لا يعقل وبين الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، بحكم موقعه هذا يوصف في القرآن بالمتضادات ، فهو خليفة في الأرض ، وهو المكرم والمفضل على كثير من خلق الله ، ثم هو الظلوم الجهول ، وهو الذى يطغى إن رآه استغنى .

وتحمل الإنسان لهذه الأوصاف يؤكد حريته وإرادته واختياره لما يضعه تحت هذا الوصف أو ذاك ، وهذا لا يكون إلا مخلوق حر مسئول .

وهذه الميزة التى نشعر بها داخلة — كما يقول بعض الباحثين — في باب التوازن الذى هو خاصية من خصائص التصور الإسلامى ، إذ يثبت الإسلام للمشئنة الإلهية الطلاقة والفاعلية التى لا فاعلية سواها ، وفي الوقت ذاته يثبت للمشئنة الإنسانية الإيجابية ويجعل لها الدور الأول في الأرض وخلافتها ، وهو دور ضخم يعطى الإنسان مركزاً ممتازاً في نظام الكون كله ، ويمنحه مجالاً هائلاً للعمل والفاعلية والتأثير ، ولكن في توازن تام مع الاعتقاد بطلاقة المشئنة الإلهية ، وتفرداها بالفاعلية الحقيقية من وراء الأسباب الظاهرة ، وباعتبار أن وجود الإنسان ابتداء وإرادته وعمله وحركته ونشاطه ، داخل نطاق المشئنة الطليقة ، المحيطة بهذا الوجود وما فيه ومن فيه^(١) ، وهل يمكن أن يكون كل هذا الدور دون ميزة كهذه ؟ فهى ميزة وطريق للمسئولية .

(١) خصائص التصور الإسلامى ، ص ٢٠٤

وهذا التميز الذى يستشعره الإنسان ، سواء بهذه الخصيصة أو غيرها مما سبق ذكره في جسم الإنسان أو عقله ، هذا التميز يشعر به كل إنسان ، فنحن ندرك وجودنا ، ونشعر بأننا نملك نشاطاً خاصاً بنا ، ونشعر بأننا نختلف عن الآخرين ونشعر بحرية إرادتنا ، وكل هذه المشاعر تؤكد أننا مستقلون عن بيئتنا ، بل إننا نتمتع بقسط وافر من الاستقلال عما تتمتع به الحيوانات الأخرى ، فقد حررنا عقلنا ، والإنسان قبل كل شئ هو مخترع الأدوات والأسلحة والآلات ، وقد استطاع أن يظهر خصائصه المميزة بواسطة هذه المخترعات^(١) .

وهذا الإحساس بالتميز لا يأتى وليد فلسفة أو دراسة تجريبية ، ولكن حسب الإنسان فيه أن يبعد عن ساحة الهوى والشطط ، فإذا كان كذلك أدرك — بأدنى تأمل ويسير مشاهدة — عجائب ورعاية الله في خلقه ، أن جنيناً أو وليداً أو سائراً في الحياة متحركاً يؤدى دوره ، وتصيبه بعض الأمراض فيدرك قيمة الحواس وميزة الصحة والنشاط ونعمة العقل والهداية ، ويرى البهائم تقاد قوداً على غير رأى منها ، فيدرك قيمة الإرادة وضرورة الحرية ، أقول يدرك كل هذا بتأمله اليسير لنفسه ، وهو بذلك يكون قد وضع أقدامه على الطريق الحق ، تلك هى معرفة النعم ، سبيلاً إلى الشكر وتحمل الأمانة دون حمل أو تأخير .

وإذا كان الله قد أوضح معنى قوله تعالى : « ولقد كرّمنا بنى آدم » بما ذكرنا بعضه من تكريم في الخلق بكل مكونات الإنسان ، فإن الله سبحانه لم يترك هذا الكائن سدى ، بل بقدر ما هياه للحياة — كما رأينا — هياً الحياة له ، وذلك بتسخير الكون له ، كما سدد هذه العلاقة

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٧٥

بين الإنسان والكون عن طريق الرسل ، وكلاهما : التسخير وإرسال الرسل ، تكريم للإنسان لا محالة ، فلنلق نظرة تذكرة على كلا المظهرين .

(ب) تهيئة الحياة للإنسان

كرّم الله سبحانه الإنسان بتهيئة الحياة له ، وتسخير ما فيها لمنفعته ، وتمكينه من دوره الذي خلقه الله من أجله ، وسرى هذا التسخير في كل ما في الكون مما يتعامل معه الإنسان ويحتاج إليه ، وجهلنا بالحكمة في بعض المخلوقات لا يعني عدم نفعها . وفي هذا أبلغ تكريم حيث سخر الله للإنسان ما هو أكبر منه خلقاً كالسموات والأرضين ، وأعظم منه جسماً كالأنعام ، وأكثر منه خطراً وأثراً في ظاهر الأمر كالبحار والنار . وغير هذا كثير ومختلف .

« واعلم أن كل ما أوجد في هذا العالم فإنما أوجد لأجل الإنسان ، إما لانتفاعه به كالخيل والبغال والحمير ، أو الأغذية له كالبقرة والغنم والحبوب والثمار ، وإما لانتفاع ما ينتفع الإنسان به كالعشب والحشرات ، وما لا يعرف الإنسان نفعه فليس يخرج عن كونه نافعاً ، وقد بين العلماء نفع جلها ، وما لا سبيل لبعضنا أو كلنا إلى معرفة نفعه ، فليس جهلنا به قادحاً في حكمة الله تعالى جده ، أو رب شيء جهلنا نفعه وقد سخر لمعرفته بعض الحيوانات ، كالشجر الذي فيه العسل بالقوة ، وما سخر لمعرفته واستخراجه إلا النحل .. » (١)

ولو علم أصحاب اتجاه تأليه الطبيعة ، ولو علم من حصر الإنسان المكرم في دائرة الاقتصاد ، لو علم هؤلاء جميعاً كم يحيطون من كرامة الإنسان الذي نصبوا أنفسهم في دائرة مكانته فيما زعموا ، لو علموا هذا لبحثوا عن تصور آخر يعلى شأن الإنسان ، ولن يكون ذلك إلا في

(١) الذريعة ، ص ٨٣ و ٨٤

تصور ينطلق من قاعدة صلبة ، تدرك أن الله هو خالق هذا الكون ، وخالق هذا الإنسان ، وبينهما من التفاعل والتناسق ما يجعل بينهما تأثيراً وتأثراً ، وقد أراد الله أن يكون الإنسان مسلطاً على المادة ، يبدع فيها وينشئ ، ويظهر من أسرارها ما أودعه الله ، ويتلقى من هذه الأسرار ما يؤدي إلى العظة والاعتبار .

« وتكريم الوجود الإنسان - مع عدم احتقار الوجود الكوني - يكفل لهذا الإنسان مقامه وكرامته ، ويجعل حياته ومقوماته أكرم من أن تمس في سبيل توفير أية قيمة مادية أخرى ، وذلك مع عدم الإخلال بالقيم المادية بالإبداع في هذه المادة » (١) .

وإذا تقرر هذا التكريم بتهيئة الحياة للإنسان ، فهذه مجرد نماذج تؤكد ما قررناه .

الزمان والمكان

أما الزمان فقد جعله الله الليل والنهار ، يتعاقبان ليحققا للإنسان إطار الحياة ، يكد ويسعى نهاره في ضوء يمكنه من هذا ، ويستريح ليله في سكون العزيز العليم ، ولذلك ذكر القرآن ما يتصل بالليل والنهار إما بصيغة التسخير وإما بذكر الغاية من هذا التسخير ، وأنكر على الإنسان ألا يدرك سر هذه النعمة ، فلو كان الليل دائماً ، أو النهار دائماً فكيف يتصور أن تكون الحياة ، وليس هناك من يسخر الليل والنهار ويجعلهما خلفية للمذكرين الشاكرين غير الله سبحانه .

يقول سبحانه :

« هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً » (٢) .

(١) خصائص التصور الإسلامي ، ص ١٠٢ - ٢٤٤

(٢) سورة يونس ، الآية ٦٧

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار » (١) .
« وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار
مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم وتعلموا عدد السنين والحساب .. » (٢) .
« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله
غير الله يأتيتكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم
النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيتكم بليل تسكنون فيه
أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه وتبتغوا
من فضله ولعلكم تشكرون » (٣) .

يقول ابن كثير في تفسير آية الإسراء : (يمن الله على خلقه بآياته
العظام ، فمنها مخالفته بين الليل والنهار ليسكنوا في الليل ، وينتسروا في
النهار للمعاش والمعاد ، والأعمال والأسفار ولتعلموا عدد الأيام
والجمع والشهور والأعوام ، ويعرفوا مضي الآجال المضروبة للديون
والعبادات ، والمعاملات ، والإجازات ، وغير ذلك ، ولهذا قال :
« لتبتغوا فضلاً من ربكم » أي في معاشكم وأسفاركم ونحو ذلك -
« وتعلموا عدد السنين والحساب » فإنه لو كان الزمان كله نسقاً
واحداً ، وأسلوباً متساوياً ، لما عرف شيء من ذلك ، كما قال تعالى :
« قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً .. » إلى قوله : « ولعلكم
تشكرون » (٤) .

ويدرك الإنسان السوى بحسه وعقله مبلغ التكريم في هذا التنظيم
لزمان الإنسان .. هذا عن الزمان .. أما المكان .

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٣ (٢) سورة الإسراء ، الآية ١٢

(٣) سورة القصص ، الآيات ٧١ - ٧٣

(٤) تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ، ص ٢٦ ، تفسير سورة الإسراء ، قصة
الإيمان ، ص ٣١٩

فهو كوكبنا الذي نعيش عليه ، الأرض كما سماها القرآن ، وقد
كرم الله الإنسان حين مهّدها له ، وجعلها صالحة للحياة بما خصها الله به
من كثافة ، وجاذبية ، وحركة ، وهواء ، وماء ، وغير ذلك من
أسباب الحياة .

وهنا في هذا الكون سيارات أخرى غير أرضنا ، منها ما هو أقرب
من الشمس ، ومنها ما هو أبعد من أرضنا ، ومنها ما هو أكبر ، ومنها
ما هو أصغر ، وكلها بحسب تقدير العلم الذي أرجح أن يكون صحيحاً ،
منفتحة عن السماء ، كما يقول القرآن .. فأرضنا التي من الله علينا في
آيات كثيرة بخلقها وذكرنا بما في هذا الخلق من دلائل القصد والحكمة
والنظام هي السيارة الوحيدة التي جعله الله صالحاً للحياة ، فقربها من
الشمس معتدل والحرارة التي تصل إليها معتدلة وكثافتها تفوق كثافة كل
السيارات ، حتى الشمس وجاذبيتها معتدلة ، ودورتها في اليوم معتدلة
كافية لإحداث ليل ونهار معتدلين صالحين للسعي والراحة ، ودورتها
السنوية معقولة وكافية لإحداث فصول معتدلة صالحة لإرواء الزروع ،
وهي تمتاز بالماء والهواء الصالحين للحياة (١) .

وقد وصل العلم إلى كل هذه الحقائق بعد أن قررتها آيات تتحدث
عن هذه الأرض ، نذكر منها قوله تعالى :

« الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم
تهتدون » (٢) .

« الله الذي جعل لكم الأرض قراراً » (٣) .

« والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي » (٤) .

(١) قصة الإيمان ، ص ٣١٧ و ٣١٨ (٢) سورة الزخرف ، الآية ١٠

(٣) سورة غافر ، الآية ٦٤ (٤) سورة الحجر ، الآية ١٩

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » (١).

« هو الذى جعل لكم الأرض بساطاً » (٢).
« وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً » (٣).

ولشديد الارتباط بين الأرض والسماء فى القرآن الكريم نذكر أن الآيات التى تحدثت عن السماء جاءت فى معرض التذكير بعظم خلقها ودلالتها على قدرة خالقها ، وكونها حجة على من استصعب خلق الإنسان من عدم ، ولعل أبرز ما يرتبط بذكر السماء فى القرآن الكريم هو كونها مكاناً للشمس والقمر ، بما فيها من جليل المنافع لحياة الإنسان ، من بهما الضوء والدفء ، وجعلهما حساباً للأيام والشهور ، وغير هذا من الفوائد ، الأمر الذى حرّك همة علماء الفلك ، فذاكروا وتدارسوا وأدركوا من عجائب الله الكثير ، وكلها تأتى لتقدم لهذا الإنسان نفعاً ، أو تمنع عنه - بإذن الله - ضرراً .

من حاجات الانسان

ونعني أهم الحاجات الضرورية ، وهى تتمثل فى الطعام والشراب والنار ، ثم فى سبيل هذا يسلك الإنسان مسالك الانتفاع بأشياء موجودة فى الكون ، ولقد كان من فضل الله وتكريمه للإنسان أن يسر له هذه الحاجات ، كما يسر له الهواء للتنفس ، والأرض للسكن ، والشمس والقمر والليل والنهار .

- (١) سورة الملك ، الآية ١٥
(٢) سورة نوح ، الآية ١٩
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٧٤

فآيات عديدة تتحدث عن الماء وكونه سبباً للحياة ، وجوده ضرورة ، وتوزيعه فى الأرض بهذه الصورة رحمة من الله وفضل كبير . يقول سبحانه :

« أفرايتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون » (١).

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه فى السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفاً ، فترى الودق يخرج من خلاله » (٢).
« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه فى الأرض » (٣).

« أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز ، فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأفلا يبصرون » (٤).

« الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٥).

« ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها » (٦).

« وما يستوى البحرين ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً ، وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » (٧).

فالماء سبيل حياة الأرض التى تنبت وتثمر للإنسان ، وهو ينزل من المطر الذى تحكمه قوانين الحرارة ، والتبخير ، والتكاثف ، إلى غير

- (١) سورة الواقعة ، الآيتان ٦٨ و ٦٩

- (٢) سورة الروم ، الآية ٤٨ (٣) سورة المؤمنون ، الآية ١٨

- (٤) سورة السجدة ، الآية ٢٧ (٥) سورة الجاثية ، الآية ١٢

- (٦) سورة فاطر ، الآية ٢٧ (٧) سورة فاطر ، الآية ١٢

ذلك مما فسرهُ العلم ، وتجميع المياه في بحار يعطى أكثر من نعمة ، ويفيد أكثر من حكمة ، ففي خلق البحر ذاته على وضعه هذا كياه بين اليابس ، في خلقه حكمة ، وفيه نعمة كونه مالحاً ، مع أن غيره من مياه البحيرات والأنهار كان عذباً وفيه الأسماك والأطعمة والجواهر ، وفيه نعمة حمل الفلك ، وغير هذا كثير (١) .

وارتباط الماء بالإنبات والإثمار الذى هو طعام الإنسان وماشيته ، ارتباط واضح ذكره القرآن في أكثر من آية ، نذكر منها قوله تعالى : « هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » (٢) .

« فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلاً * وحدائق غلباً * وفاكهة وأباً * متاعاً لكم ولأنعامكم » (٣) .

وفى تدبر هذه الآيات ما يفيد التكريم للإنسان ، حيث هيا له أسباب الحياة على الأرض ، فالماء والنبات والأثمار ، وجعل الأرض خصبة تنشق لتنبت ، وفوق هذا فهناك تسخير البحر وما فيه من لحوم للطعام وحلى للزينة ، وكل هذا ينطق بقدرة الله ولا شك ، إذ كيف يتصاعد الماء بخاراً لينزل مصدر حياة ، وكيف تنبت الأرض ثماراً مختلفة والماء واحد ، والعبر أكثر من الحصر . والنار التى عرف تاريخ الإنسانية نفعها هى نتاج إنبات النبات ، ووجود الشجر الذى منه مادتها .

(١) قصة الإيمان ، ص ٣٣٥ (٢) سورة النحل ، الآيتان ١٠ و ١١
(٣) سورة عبس ، الآيات ٢٤ - ٣٢

يقول سبحانه وتعالى :

« أفرأيتم النار التى تورون * أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين * فسيح باسم ربك العظيم » (١) .
« الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » (٢) .

وما ذكرناه مجرد أمثلة تؤكد ما ذهبنا إليه من أن الله يسر للإنسان سبيل حياته زماناً ومكاناً ، وضروريات حياة ، دون أن يهمله فى جانب المتعة والزينة ، كما يتبين من الآيات التى تحدث عن الأنعام .
يقول سبحانه وتعالى :

« أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فيها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » (٣) .

« وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين » (٤) .

« وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين » (٥) .

« الله الذى جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون * ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم ، وعليها وعلى الفلك تحملون » (٦) .

(١) سورة الواقعة ، الآيات ٧١ - ٧٤ (٢) سورة يس ، الآية ٨٠
(٣) سورة يس ، الآيات ٧١ - ٧٣ (٤) سورة النحل ، الآية ٦٦
(٥) سورة النحل ، الآية ٨٠ (٦) سورة غافر ، الآيتان ٧٩ و ٨٠

« والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون » (١) .
وما أظن الأمر يحتاج إلى بيان أوضح من هذا البيان ، وبخاصة بعد
أن أثبت العلم حاجة الإنسان إلى البروتينات ، وأن أعظم مصدر
للبروتينات الكاملة هو (اللحوم واللبن) إلى جانب ما فيها من معادن
وفيتامينات ، كما أثبت العلم أن هذه الحيوانات اللبونة هي التي تنتج
اللبن باستمرار ، وأنها وحدها التي تجمع بين هذه الخصائص وبين
القدرة على الحرث والحمل والجر (٢) .

ولعل هذا الذي ذكرنا من التكريم هو ما عرفه بعض مفكرى
الإسلام بالعناية الإلهية ، حيث جعلها ابن رشد دليلاً على وجود الله
سبحانه وهو - عنده - دليل قرآني يقينى يصاحب دليل الاختراع
وخلق الله سبحانه للموجودات . يقول :

(فما هي الطريقة الشرعية التي نبه الكتاب العزيز عليها ، واعتمدها
الصحابة رضوان الله عليهم ؟ قلنا : الطريقة التي نبه الكتاب العزيز
عليها ، ودعا الكل من بابها ، إذا استقرئ الكتاب العزيز ، وجدت
تنحصر في جنسين : أحدهما طريق الوقوف على العناية بالإنسان ،
وخلق جميع الموجودات من أجله ، ولنسم هذا (دليل العناية) .
والطريقة الثانية ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات ، مثل
اختراع الحياة في الجماد ، والإدراكات الحسية ، والعقل ، ولنسم هذا
(دليل الاختراع) .

فأما الطريقة الأولى فتبنى على أصلين : أحدهما أن جميع
الموجودات التي ههنا موافقة للإنسان ، والأصل الثانى أن هذه الموافقة

(١) سورة النحل ، الآية ٨

(٢) قصة الإيمان ، ص ٣٦٨

هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك ، مريد ، إذ ليس يمكن أن
تكون هذه الموافقة بالاتفاق .

فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك باعتبار
موافقة الليل والنهار والشمس والقمر لوجود الإنسان ، وكذلك موافقة
الأزمنة الأربعة له ، والمكان الذى هو فيه أيضاً وهو الأرض ، وكذلك
تظهر أيضاً موافقة كثير من الحيوان له ، والنبات والجماد وجزئيات
كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار ، وبالجملة الأرض والماء والنار ،
وكذلك أيضاً تظهر العناية في أعضاء البدن وأعضاء الحيوان ، أعنى
كونها موافقة لحياته ووجوده (١) .

وهذا الذى ذكرنا مجرد أمثلة تشير إلى صحة ما نذهب إليه ، وإلا
فآيات التسخير عديدة ، وفوائده بجمّة ، إذ منه ما هو لمعرفة عدد السنين
والحساب ، ومنه ما هو قوانين المعارف والعلوم ، ومنه ما يصلح في
باب الحجاج مع الذين لا يؤمنون بوجود إله قوى قادر ، وغير هذا
من الأهداف التي يستهدفها التسخير إلى جانب ما ذكرنا (٢) .

لكن تعامل الإنسان المكرم في ذاته ، مع الكون المسخر له ، قد
يحدث فيه اضطراب لو أنه اعتمد في كل شيء على العقل وحده ، إذ
ربما أثر على العقل مؤثر ، فضل الطريق وأخطأ فهم معنى التكريم ،

(١) ابن رشد : مناهج الأدلة ، ص ٣٨ ، تحقيق : د. محمد قاسم ، طبعة ١٩٦٥ م
الأنجلو المصرية .

(٢) انظر في هذا : سورة إبراهيم ، الآية ٣٢ ، وسورة النحل ، الآية ١٤ ،
وسورة الحج ، الآية ٦٥ ، وسورة العنكبوت ، الآية ٦١ ، وسورة لقمان ، الآيات
٢٠٠ - ٢٩ ، وسورة فاطر ، الآية ١٣ ، وسورة الزمر ، الآية ٥ ، وسورة الزخرف
الآية ١٣ ، وسورة الجاثية ، الآية ١٢ . (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم :
محمد فؤاد عبد الباقي . مادة خخر) .

لذا زاد الله من تكريمه للإنسان ، فأرسل له الرسل ليسدد خطاه ويوقفه على الطريق الحق .

(ج) رسالات الله للإنسان تكريم له

ربما خالط بعض الأذهان وهم مؤداه أن تكريم الله للإنسان بالعقل قد يشوبه إرسال الرسل وسيادة الوحي ، ولعل هذا الوهم في أذهان بعض المثقفين مبعثه أن الفكر الغربي عرف صراعاً فكرياً حاداً بين العقل وما يسمى الدين (الذي هو في الحقيقة تعاليم الكنيسة) . عرفوا هذا الصراع وهم يبحثون عن أى المصادر أوثق للمعرفة ، وتخطوا في ذلك أيما تخط ، فقد تبعوا نصوص الكنيسة زمناً ثم دعاهم التفكير فيها إلى الثورة عليها ونبذ ما بها من خرافات ، الاعتراف بالخطأ وصكوك الغفران وغيرها ، وهنا وجدوا في العقل ضالتهم ، فاعتبروه المصدر اليقيني للمعرفة ، والمقياس للصواب والخطأ ، وأعطوه السيادة التي كان يتمتع بها ما يسمى الدين (أعني تعاليم الكنيسة) وفترة سيادة العقل هذه هي ما يعرفها تاريخ الفكر الغربي بعصر التنوير ، أو العصر الإنساني ، لكن هذا لم يدم طويلاً ، إذ بدأت بوادر الشك في العقل كمصدر للمعرفة ، ولجأ إلى الحس والواقع والتجربة والمشاهدة ، ليكون ما يسمى بالمصدر التجريبي للمعرفة ، وبخاصة بعد أن ثبت تقدم كثير من العلوم في إطار هذا المنهج التجريبي . وغداً وهماً ما كان يسمى بسيادة الدين ، وما يسمى بسيادة العقل^(١) .

لعل بث الغرب لهذه الأفكار في عقول المسلمين ، مفهماً إياها على أنها قضية صراع حتمي بين الدين الذي يعطى الأوامر بقسوة ، وبين العقل البشري الذي يحترم إنسانية الإنسان ، أقول لعل تعميم هذه

(١) خصائص التصور الإسلامى ، ص ١٠٢ - ١٠٦

الأفكار وتصويرها هو الذى ألقى في بعض الأذهان الوهم الذى أشرنا إليه .

وحقيقة الأمر غير هذا الوهم تماماً ، فزيادة تكريم ورعاية من الله للإنسان شاء إرسال الرسل ، إذ بعد أن كرم الله الإنسان في تكوينه جسماً وعقلاً وإرادة ، وهياً له الكون للحياة تسخييراً وانقياداً ، ما كان لرحمته وفضله أن يترك الإنسان يتعامل مع هذا الكون بعقله وحده ، وعقله جزء من جسمه ، يخضع لبعض هواه أحياناً ، ويتأثر بعقله وضعفه ، فكان إرسال الرسل ترشيدهم لهذا التعامل مع الكون ، وسيابجاً يحمى العقل من الانحراف ، وبخاصة أن العقول تختلف من شخص إلى آخر ، فليس فيها ما يمثل المقياس للحكم ، فضلاً عن عدم إحاطتها بحكم محدوديتها .

(بعثه الأنبياء إلى الناس من الضرورات التي لا بد لهم منها ، وذلك أن جل الناس نقص عن معرفة منافعهم ومضارهم الأخروية ، جزئياتها وكلياتها ، وبعضهم وإن كان لهم سبيل إلى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة فليس لهم سبيل إلى معرفة جزئياتها ولم يمكنهم أن يعرفوا كيف يجب ؟ وفي أى وقت يجب ؟ وكى يجب ؟ فلما كان كذلك من الله تعالى على كافة عبادته خاصهم وعامهم ، فبعث فيهم من أنفسهم برسل يتلون عليهم آياته ويزكونهم ويعلمونهم الكتاب والحكمة ، لكي إذا تمسكوا به صلح معادهم ومعاشهم وسهل عليهم إدراكهم ، ولهذا أزال عنهم بيعته الأنبياء ، فقال تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »^(١) . ومكابدة الإنسان حياته على هذه الأرض ، واحتياجه فيها إلى قانون ونظام يحكم حياته وينظم شئونها كى تبنى وفق غاية الله من

(١) الذريعة ، ص ١٣٦ و ١٣٧

«واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم» (١).

والآيات التي تتحدث عن إرسال الرسل تعني - والله أعلم - أن من عدل الله وفضله أن يرسل للناس رسلاً يبينون لهم الخير من الشر . وهم يتحدثون بلسان أقوامهم ليفهموا بيانهم ، كمن يتحقق الغاية من البشارة للصالحين ، والإنذار للغيرهم ، (أى أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسله بالبشارة والندارة وبين ما يحبه ويرضاه ويكرهه ويأباه ، لئلا يبقى لمعتذر عذر ، كما قال تعالى : «ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلنا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى» (٢) ..

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا أحد أغير من الله ، من أجل ذلك حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين) . وفي لفظ آخر : «من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه» (٣).

وقد ذكرنا من قبل ما يؤكد الحاجة إلى الرسل لعدم كمال العقل وحده في ما يأخذ وما يدع ، بل نؤكد أن العقل كثيراً ما أشقى نفسه وأضاع جهده دون جدوى ، لأنه ابتعد عن هدى الرسل في رسالاتهم (وقد كان الأنبياء عليهم السلام أخبروا الناس عن ذات الله وصفاته وأفعاله ، وعن بداية هذا العالم ومصيره ، وما يهجم عليه الإنسان بعد

(١) سورة الحجرات ، الآية ٧ (٢) سورة طه ، الآية ١٣٤

(٣) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٥٨٨ و ج ٢ ، ص ٥٢٢

موته ، وأتاهم علم ذلك كله بواسطة عفواً بدون تعب ، وكفوهم مؤونة البحث والفحص في علوم ليس عندهم مبادئها ولا مقدماتها التي ينون عليها بحثهم ليتوصلوا إلى مجهول ، لأن هذه العلوم وراء الحس والطبيعة ، ولا تعمل فيها حواسهم ، ولا يؤدي إليها نظرهم ، وليست عندهم معلوماتها الأولية . لكن الناس لم يشكروا هذه النعمة ، وأعادوا الأمر جذعاً وبدأوا البحث آنفاً ، وبدأوا رحلتهم في مناطق مجهولة ، لا يجدون فيها مرشداً ولا خريئاً خبيراً ، وكانوا في ذلك أكثر ضلالاً وأشدّ تعباً ، وأعظم اشتغالا بالفضول .. من رائد لم يقتنع بما أدى إليه العلم الإنساني في الجغرافية وما حدد وضبط في الخرائط على تعاقب الأجيال ، فحاول أن يقيس ارتفاع الجبال ، وعمق البحار من جديد ، ويختبر الصحارى والمسافات والحدود بنفسه ، على قصر عمره وضعف قوته ، وفقدان آلته ، فلم يلبث أن انقطعت به مطيته ، وخانته عزيمته . فرجع بمذكرات وإشارات مختلفة . وكذلك الذين خاضوا في الإلهيات من غير بصيرة وعلى غير هدى ، جاءوا في هذا العلم بآراء فجأة ، ومعلومات ناقصة ، وخواطر ساذجة ، ونظريات مستعجلة .. فضلوا وأضلوا (١).

وقد أشار إلى هذا الإمام القرطبي ، حين فسر قوله تعالى : « ولقد كرمنا بني آدم .. » الآية ، وذكر أن العقل لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب (٢) ، ومعناه أن ترك الأمر للعقل في كل شيء قد يقلب النعم نقمًا ، ويحيل اليسر حرجًا ، وهو ما يجذب اتباع الرسل - والعقل يقضى بذلك - لأنهم أدرى وأعلم ، وقوله تعالى : «واعلموا أن فيكم رسول الله» أى اعلموا أن بين أظهركم رسول الله ،

(١) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم باخطا المسلمين ، ص ٦٨

(٢) تفسير القرطبي ، المجلد الخامس ، ص ٢٩٣ ، تفسير سورة الإسراء .

فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم ، كما قال تبارك وتعالى : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم » . ثم بين أن رأيهم خفيف بالنسبة إلى مراعاة مصالحهم ، فقال : « لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم » أى لو أطاعكم في جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنتكم وحرجمكم ، كما قال سبحانه وتعالى : « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » ، بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون » (١) .

ولعل هذه الإشارات السابقة تكفى في الإيماء إلى كون إرسال الرسل مظهراً من مظاهر تكريم الله للإنسان ، يكمل ما قبله ويعطيه معنى ، وفي كل المظاهر التي ذكرنا تتجلى صورة الإنسان المكرم بين مخلوقات الله جميعاً .

وإذا كان البعض يكفيه شرف هذا التكريم فيتغنى به ، ويضطرب له ، فإننا نرى غير ذلك ، نرى أن هذا التكريم البين الجلى يلقي على الذهن سؤالاً مؤداه : لماذا كل هذا التكريم ؟

ويسوغ السؤال للعقل كون الإنسان هو المخلوق الذى يعصى الله ، ويشاق الله ورسوله : « أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » (٢) ، الأمر الذى يحيل السؤال بالرأس ، ويورده على العقل والوجدان : لماذا كل هذا التكريم ؟ ما الميزة التى تجعل الإنسان جديراً بكل هذه العناية ؟ ما دوره ؟ كيف يحقق إنسانيته ؟ أسئلة تدور ولا بد لها من جواب .

وهذه محاولات الصفحات التالية إن شاء الله .
والله من وراء القصد .

(١) تفسير ابن كثير ، الجزء الرابع ، ص ٢١٠ ، تفسير سورة الجحرات .
(٢) سورة يس ، الآية ٧٧ .

الإنسان مخلوق مستول

إذا كان الحديث عن مظاهر تكريم الله للإنسان قد أثار أسئلة
بروزها : لماذا كل هذا التكريم للإنسان ؟ وما الأشياء يستحق هذا ؟
والإجابة على هذا كله تقتضى أن نعرض الوجه الآخر من قضية
الإنسان في هذا الكون ، فإنه إلى جانب الآيات التى تتحدث عن إكرام
تكريه هذه آيات أخرى تربط به دوراً ، وتنبئ به مهمة ، تذكر منها
توبة تعالى :

الفصل الثالث

حقيقة الإنسان في التصور الاسلامي

ومن هذه الآيات ونظائرها فهم أن دوراً ما يجب أن يقوم به
الإنسان ، وإن كانت الآية الأخيرة حددت الغاية من خلق الإنسان
المميز ، فإن مفهوم العبادة يحتاج إلى بيان منه يتحدد الدور بدقة ووضوح
يساعد في بيان بعض جوانب الإجابة على السؤال السابق .
وفي دائرة اهتمام علوم الإنسان بالإنسان كان حديث ودراسات في
مسئولية الإنسان ، فالباحثون في مجال الأخلاق يهتمون بالمسئولية
الأخلاقية ، تلك التى يراقبها القصور والوجدان ، والباحثون في مجال
القانون الوضعي يهتمون بالمسئولية القانونية ، تلك التى تراقبها أجهزة

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٥ . (٢) سورة النجم ، الآية ١٠١ .

(٣) سورة النجم ، الآية ١٠١ .

الإنسان مخلوق مسئول

إذا كان الحديث عن مظاهر تكريم الله للإنسان قد أثار أسئلة مؤدّاه: لماذا كل هذا التكريم للإنسان؟ وبأى الأشياء يستحق هذا؟ فإن الإجابة على هذا كله تقتضي أن نعرض للوجه الآخر من قضية الإنسان في هذا الكون، فإنه إلى جانب الآيات التي تتحدث عن إبراز تكريمه نجد آيات أخرى تربط به دوراً، وتنبط به مهمة، نذكر منها قوله تعالى:

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » (١).

« يحسب الإنسان أن يترك سدى » (٢).

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٣).

ومن هذه الآيات ونظائرها نفهم أن دوراً ما يجب أن يقوم به الإنسان، وإن كانت الآية الأخيرة حددت الغاية من خلق الإنسان المميز، فإن مفهوم العبادة يحتاج إلى بيان، منه يتحدد الدور بدقة ووصف يساعد في بيان بعض جوانب الإجابة على السؤال السابق.

وفي دائرة اهتمام علوم الإنسان بالإنسان كان حديث ودراسات في مسئولية الإنسان، فالباحثون في مجال الأخلاق يدرسون المسئولية الأخلاقية، تلك التي يراقبها الضمير والوجدان، والباحثون في مجال القانون الوضعي يبحثون المسئولية القانونية، تلك التي تراقبها أجهزة

(١) سورة المؤمنون، الآية ١١٥. (٢) سورة القيامة، الآية ٣٦.

(٣) سورة الذاريات، الآية ٥٦.

الدولة وتجرم على أساسها الفعل أو تقبله . ويدرس كذلك العلاقة بين الحق والواجب (١).

لكن كل هذه المعالجات - مع تقديرنا لها - تتحدث عن مسؤوليات جزئية تتضمنها المسؤولية الحقيقية ، وهي مسئوليتنا تجاه الإسلام ذاته باعتباره دين الله الذي يحقق للبشرية كمالها ، ويمنحها الأمن والسداد في مسيرتها ، وإلا فإن الخسارة كبيرة ، ولا يمكن أن ينفع معها تكريم مظهرى لهذا الإنسان الذي نكص عن مسؤوليته .

(نحن لا نحتاج إلى فرض إصلاح على الإسلام - كما يظن بعض المسلمين - لأن الإسلام كامل بنفسه من قبل ، أما الذي نحتاجه فعلاً فهو إصلاح موقفنا من الدين بمعالجة كسلنا ، وغرورنا ، وقصر نظرنا ، وبكلمة واحدة : معالجة مساوئنا .. إن الخسارة لن ترجع علينا - نحن المسلمين وحدنا - ولكنها سترجع على البشرية كلها بتشويه وتحريف المصدر الوحيد الباقي لها من هداية الله ، وتكدير - أو تسميم - المورد الوحيد الذي يمكن أن نستقي منه الهدى الرباني الخاص ، وسترجع على البشرية كلها بحرمانها هذه المثابة الثابتة المستقرة في الأرض المرجحة التي تمور بالأهواء ، والتي ظهر فيها الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . ولم تعد لها منجاة إلا في هذه المثابة الآمنة المستقرة ، الموصولة بالله ..) (٢)

وهذه المسؤولية الكبرى هي - كما سيتضح قريباً - خطيرة ، لأنها الإسلام ، وأمانة تبليغه ونشره ، والحفاظ عليه . غصاً كيوم نزل على

(١) د . محمد فتحي عثمان : المسؤولية في الإسلام ، ص ٥ ، بحث منشور في الموسم الثقافي لكلية الشريعة ، جامعة الإمام محمد بن سعود .

وأيضاً : د . محمد عبد الله دراز : خلق القرآن ، ص ٧٥ و ٧٨ و ٨٢ .
(٢) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ص ١١٠ ، ترجمة عمر فروخ .

الرسول وطبقه هو وأصحابه : (إن الإسلام قضية كبرى .. وأمانة أكبر ، وإن الذين حملوها حتى الآن لم يحملوها ، وإن أكثرهم حملها كما يحمل الحمار الأسفار .. لم يدر ما بها من خير وكنوز .. وإن بعضهم حملها كما يحمل الذئب الغنم .. أو كما يحمل القط الفأر) (١).

المسؤولية في التعبير القرآني

وردت آيات في القرآن توضح مركز الإنسان في هذا الكون من قبل مسؤوليته ودوره ، وهذه الآيات - وإن اختلفت في ألفاظها ومناسباتها - فإنها تلتقي جميعها عند ربط دور الإنسان به وقياسه بمدى تحقيقه وفق منهج الله ، وما نحن أولاء نذكر بعض الآيات :

الخلافة

يقول الله سبحانه : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون » (٢) .
وذهب المفسرون في معنى الخلافة مذاهب ، فمن قائل إنها خلافة الله في الحكم بالعدل بين الناس ، وهذا يعني آدم وكل من يقوم مقامه في الحكم بالعدل بين خلق الله . ويذكر ابن كثير في روايته عن المفسرين أن القرطبي استدلل هو وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ، يفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، ويقطع تنازعهم ، وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ، ويقيم الحدود ، ويزجر عن تعاطي الفواحش ، إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا يمكن إقامتها إلا بالإمام ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

(١) د . علي جريشة : تصحيح مفاهيم في تطبيق الشريعة ، ص ٢٢ ، بحث نشر في الموسم الثقافي لكلية الشريعة ، جامعة الإمام - ربيع الأول ١٣٩٩ هـ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٣٠

ومن المفسرين من قال : « إني جاعل في الأرض خليفة » أى قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ، كما قال تعالى : « هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض » . وقال : « ويجعلكم خلفاء الأرض » . وقال : « فيخلف من بعدهم خلف » ..

ويذكر ابن كثير أن قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك » ليس اعتراضاً ولكنه سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك ، يقولون يا ربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء ، فإن كان المراد عبادتك فتحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، أى نصلى لك .. قال تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال : « إني أعلم ما لا تعلمون » أى إني أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها ، ما لا تعلمون أتم ، فإنى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ، ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد الزهاد ، والأولياء والأبرار ، والمقربون والعلماء الخاشعون ، والمحبون له تبارك وتعالى ، المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم (١) .

وليس من المعقول أن يستحق الإنسان أن يقول الله عنه : « إني أعلم ما لا تعلمون » وهو دون دور أو مهمة تستحق أن يغتفر من أجلها وجود بعض المفسدين من جنس الإنسان .

ومهما قيل عن معنى الخلافة فهى تبعة ومسئولية يورثها السلف للخلف ويتوقف على أدائها تحقيق منافع التكريم الذى هم فيه ، كما يرتبط هذا بوجه أو بآخر باستمرارية الدين وخاتمية الرسالة .

(١) تفسير ابن كثير ، ج ١ ، ص ٦٩ - ٧٢ ، تفسير سورة البقرة .

ولفظ الاستخلاف هنا - على أى معنى - يتسع ليشمل صورة الإنسان وهو يزرع ، مادام ذلك من أجل تحصيله قوته حالاً ، ليتمكن من العمل المنوط به فى عمارة الأرض ، كما يشمل جهده العقلى والعلمى ، وهو يفجر الذرة ، ويرسل الأقمار الصناعية ، لتكشف له طبيعة الغلاف الجوى للأرض ، ما دام كل ذلك طريقاً يبتغى به وجه الله ، وتحقيق معنى الخلافة والعبادة .

وهذا الشمول فى المفهوم يتلاءم مع مركز الإنسان فى هذا الكون ، حيث لا يبتغى أن تعلو قيمته قيمة مادية ، أو تهدر من أجل ذلك كرامته التى أكدها القرآن فى مواضع شتى وصور مختلفة (٢) .

العبادة

ويقول سبحانه : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » (٣) . يقول الحافظ ابن كثير : (أى إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي لا لاحتياجي إليهم . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : « إلا ليعبدون » أى إلا ليقروا بعبادتي طوعاً أو كرهاً .. وقال ابن جريج : « إلا ليعرفون » . وقال الربيع بن أنس : « إلا ليعبدون » أى إلا للعبادة (٤) .

وعباداة الله ومعرفته هى غاية الوجود الإنسانى كما تعنى الآية ، والله أعلم بمراحده ، وهذا يعنى كل نشاط إنسانى يتجه به الإنسان إلى الله ، طبقاً لمقتضيات الخلافة المتحددة (ويتمثل فى عبودية الله وحده ، بالتحاكم إلى منهجه وحده فى كل شئون الحياة .. فإذا لم يتجه إلى الله

(١) خصائص التصور الإسلامى ، ص ١٢٧

(٢) سورة الذاريات ، الآية ٥٦

(٣) ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٢٣٨ ، تفسير سورة الذاريات .

بكل نشاط ، وإذا لم يتحاكم إلى منهج الله في كل شأن ، فقد أخل بهذه الحقيقة الثابتة ، وخرج على غاية وجوده الإنساني (١).

والتوجه إلى الله بالعبادة ومعرفة الله حق معرفته مسئولية ليست هينة ، لأنها محاولة من الإنسان جادة للارتفاع إلى مقام العبودية لله وحده ، وهو مقام رفيع خوطب به رسولنا الكريم ليلة الإسراء والمعراج : « سبحان الذي أسرى بعبده » وصعوبته تكمن في أنه تحرر تام من العبودية لغير الله من مال وولد ومتاع حياة ونوازع نفس وغير ذلك مما يغرق الناس فيه حين لا يقومون بأنفسهم في مقام العبودية ، فيهبطون بأقدارهم من علياء التكريم المسئول إلى حضيض الحيوانية اللا مريدة ، والمنساق وراء أحسن النزعات .

(إن العبادة في الإسلام ليست محصورة في أعمال من الخشوع الخالص كالصلاة والصيام مثلاً ، ولكنها تتناول كل حياة الإنسان العملية أيضاً ، وإذا كانت الغاية من حياتنا على العموم (عبادة الله) فيلزمنا حينئذ ضرورة أن ننظر إلى هذه الحياة في مجموع مظاهرها كلها على أنها تبعة أدبية متعددة النواحي .. وعبادة الله في أوسع معانيها تؤلف في الإسلام معنى الحياة الإنسانية .. هذا الإدراك وحده يرينا إمكان بلوغ الإنسان الكمال في إطار حياته الدنيوية الفردية .

ومن بين سائر النظم الدينية نرى الإسلام - وحده - يعلن أن الكمال الفردي ممكن في الحياة الدنيا .. إن الإسلام لا يؤجل هذا الكمال إلى ما بعد إماتة الشهوات الجسدية ، ولا هو يعدنا بسلسلة متلاحقة من تناسخ الأرواح على مراتب متدرجة - كما هي الحال في الهندوكية - ولا هو يوافق البوذية التي تقول بأن الكمال والنجاة لا تمان إلا بعد

(٢) خصائص التصوير الإسلامي ، ص ١٢٧

انعدام النفس الجزئية ، وانفصام علاقاتها الشعورية من العالم ، كلا إن الإسلام يؤكد في إعلانه أن الإنسان يستطيع بلوغ الكمال في حياته الدنيا الفردية ، وذلك بأن يستفيد استفادة تامة من وجود الإمكان الدنيوي في حياته هو (١).

الأمانة

ويقول سبحانه وتعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات ، وكان الله غفوراً رحيماً (٢).

ولننظر بماذا فسرت الأمانة في هذه الآية ومدى ما تعنيه من مسئولية : يقول ابن كثير : (قال العوفي عن ابن عباس : يعني بالأمانة الطاعة ، عرضها عليهم قبل أن يعرضها على آدم فلم يطقنها ، فقال لآدم : إني قد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فلم يطقنها ، فهل أنت آخذ بما فيها ؟ قال : يا رب وما فيها ؟ قال : إن أحسنت جزيت وإن أسأت عوقبت ، فأخذها آدم فحملها ، فذلك قوله : « وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة : الفرائض .. « وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً » أى غراً بأمر الله .. وقال قتادة : الأمانة : الدين والفرائض والحدود .

(١) محمد أسد : الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٢٠ - ٢٣ ، ترجمة د. عمر

فروخ .

(٢) سورة الأحزاب ، الآيتان ٧٢ و ٧٣

وقال مالك عن زيد بن أسلم : الأمانة ثلاثة : الصوم والصلاة والاعتسالة .

وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إذا قام بذلك أثيب ، وإن تركها محسوب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه إلا من وفق الله ..

قال ابن زيد في قول الله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال » الآية ، قال : إن الله عرض عليهن الأمانة أن يفترض عليهن الدين ويجعل لهن ثواباً وعقاباً ، ويستأنهن على الدين ، فقلن : لا ، نحن مسخرات لأمرك ، لا نريد ثواباً ولا عقاباً ، قال : وعرض الله تعالى على آدم فقال : بين أذني وعاتقي . قال ابن زيد : فقال الله تعالى له : أما إذا تحملت هذا فساء عينك ، اجعل لبصرك حجاباً ، فإذا خشيت أن تنظر إلى ما لا يحل لك فارخ عليه حجابيه ، واجعل للسانك باباً وغلطاً ، فإذا خشيت فأغلق ، واجعل لفرجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أحلت لك^(١) ، وهذا المعنى الذي ذكره المفسرون للأمانة ينطبق على المواضع الخمسة التي ذكر فيها كلمة أمانة وأمانات . « فليؤد الذي أوتمن أمانته »^(٢) .

« إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »^(٣) .

« لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم »^(٤) .

« والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون »^(٥) .

(١) ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٥٢٢ و ٥٢٣ تفسير سورة الأحزاب .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٣ (٣) سورة النساء ، الآية ٥٨

(٤) سورة الأنفال ، الآية ٢٧ (٥) سورة المؤمنون ٨ ، المعارج ٣٢

وهي (الأمانة) وإن كانت خصصت في آية البقرة ، إلا أنها داخلة في التذكير بالمعنى العام للأمانة كما سبق ذكره .

وبقي أن نقول إن وصف الإنسان بأنه ظلم جهول لحمله الأمانة يحتاج إلى بيان . وحقيقة الأمر أن تفسيرات عديدة طرحت في هذا الصدد .

(فهو ظلم جهول : ظلم لأنه يتعدى الحدود وهو يعرفها ، وجهول لأنه يتعدى تلك الحدود وهو لا يعلمها ، وعنده أمانة العقل التي تهديه إلى علمها ، وما من كائن غير العاقل يوصف بالظلم والجهل ، لأنه لا يعرف الحد الذي يتعده ، ولا تناط به معرفة الحدود ، وإنما يوصف بالظلم والجهل من يوصف أن يوصف بالعدل والمعرفة ، ومن يصح أن يسأل عن فعل يريده في الحالين)^(١) .

ومعظم المفسرين على أن حملها بمعنى تحملها ، أي لا يعطيها إلا لصاحبها ، أو بمعنى تكبد تبعاتها . ويفسرون ظلمه وجهله نظراً لضعفه باعتبار الغالب من أفراد الإنسان .

لكن صاحب تفسير الجواهر يضيف معنى جديداً وجديراً بالاعتبار ، إذ يفسر حمل الأمانة ، وتشهد له بذلك دلالة اللغة كما ينقل عن تفسير الفيروزبادي : « فأبين أن يحملها الإنسان » أي أبين أن يخونها وخانها الإنسان^(٢) . وهو من باب حمل الرجل الشيء ، أي أخرجه عن وقته .

وفي كل المعاني التي ذكرت تبرز معنى المسئولية ، وبخاصة إذا فسرت على أنها الدين ، وهذا ما نبيل إليه .

(١) الإنسان في القرآن ، ص ٢٥٠

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٥٥

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ومن الآيات التي ذكرت مسئولية الإنسان آيات تتحدث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، نذكر منها قوله سبحانه :

« ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » (١)

« كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله » (٢)

« ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين » (٣)

وهذه الآيات تنطق بالمسئولية التي يجب أن يتحملها الإنسان في نشر الحق والخير ، وإذا كان بعض المفسرين ذهب إلى أن مهمة الدعوة إلى الخير الذي هو الإسلام ، ومهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي من مهام الأمة المسلمة وحدها ، حتى أنه لا يصح لغير المسلم القيام بهذا ، أقول : وحتى على هذا الرأي فإن ذلك مسئولية الإنسان الذي هداه الله وهو الإنسان الحقيقي ، لأن من جاء إليه هدى الأنبياء ، ورزق العقل ليفهم خير هذا من شره ، ثم هو لم يفد من كل هذه المنح ، هو الذي هبط بنفسه عن مستوى الإنسان كما يحكي القرآن نفسه : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها »

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠
(٣) سورة آل عمران ، الآيتان ١١٣ و ١١٤

ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم أذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (١)

وقد امتدح الله من قام بهذه المسئولية من أهل الكتاب كما جاء في الآية الثالثة ، واعتبرهم سبحانه من الصالحين .. وما ذلك إلا لأنه مهمة الأنبياء ، ووصية الحكماء ، كما بدا من وصية لقمان لابنه : « يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » (٢)

(لقب القرآن الأمة المسلمة بخير أمة لأنها « تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر » ، وكذلك وصف المؤمنين من أهل الكتاب بأمة قائمة ، لأنهم يتلون كتاب الله ويعبدون الله تعالى ويؤمنون به وبالآخرة ، ولأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، مما يدل على أن الانتماء إلى خير أمة ، « والأمة القائمة » لا يقتضي التحلي بصفات ذاتية فحسب ، بل يستوجب مع ذلك حمل الرسالة وقيادة البشرية وهداية العالم) (٣)

ولعل لصوق هذه المسئولية بالإنسان المكلف هو الذي جعل الذم يتوجه إلى بني إسرائيل على تركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستوى في ذلك الذم العلماء والعامة ، كما يحكي حديث رسول الله : (إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول ... يا هذا ، اتق الله ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه ، وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض ، ثم قال : « لعن الذين كفروا »

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ (٢) سورة لقمان ، الآية ١٧
(٣) جلال الدين العمري : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ص ٢١ ، ترجمة من الأردنية : أجل أيوب الإصلاحي ، نشر شركة الشعاع بالكويت ، ١٤٠٠ هـ

من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » (١) .

ثم قال : (والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً) (٢) .

وقد شدد النكير على علمائهم بقوله : « لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون » (٣) .

ولعل في هذا - إلى جانب بيانه المسؤولية في هذا الأمر على العموم - ما يحفز علماء الأمة المسلمة إلى تدارس الأمور ، وبيان وجه الحق فيها ، وبيان حلال الأمر من حرامه ، حتى تجنب هذه الأمة اللعنة التي صلبها الله على بنى إسرائيل ، وفي كل هذا بيان لعموم مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومسؤولية الإنسان من حيث الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، هي مسؤولية الإنسان من حيث هو عاقل مكلف بالدين ، والدين عند الله الإسلام ، وكأن ما كان من أمر أهل الكتاب حلقة تتصل بما يجب أن يكون من قيام الإنسان حامل الرسالة الخاتمة ، وحق عليه أن يحملها يهدي بها من ضل عقله أو زاغ بصره ، وهو بهذا يصلح نفسه ويصلح غيره (٤) .

(١) سورة المائدة ، الآيتان ٧٨ و ٧٩ (٢) رواه أبو داود والترمذي .

(٣) سورة المائدة ، الآية ٦٣ .

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ص ٤٥ و ١١٥ و ١١٦ .

العلماء ومسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ولأن هذه المسؤولية هي جامع ما سبقها من ألفاظ المسؤولية في القرآن والسنة ، ولأنها الطريق العملي والتنفيذي للأمانة والخلافة والعبادة ولأن ممارستها تحتاج إلى جهد وصبر دائبين ، لهذا وغيره من أسباب تركيز اهتمام العلماء المسلمين على بيان وجوب هذه الفريضة ، وخطورة التهاون في القيام بها ، لأن هذا النكوص ردّة من الإنسان إلى حضيض الحيوانية ، وانتكاسة يتحمل البشر والحياة كلها نتيجتها الوخيمة .

يقول الإمام الغزالي : (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهمة التي ابتعث لها النبيين جميعاً ، ولو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله ، لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد ، وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحى بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مDAHنة الخلق ، وانمحى عنها مراقبة الخالق ، واسترسل في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعز على بساط الأرض مؤمن صادق ، لا تأخذه في الله لومة لأثم ، فمن سعى في تلافى هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، إما متكفلاً بعلمها ، أو متقلداً بتنفيذها ، مجدداً لهذه السنة الدائرة ، ناهضاً بأعبائها ، ومتشمرّاً في إحيائها ، كان مستأثراً من بين الخلق بإحياء سنة أفضى الزمان إلى إمامتها ومستمسكاً بقربة ، تتضاءل درجات القرب دون ذروتها) (١) .

(١) إحياء علوم الدين ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .

وورود كلمة سنة في حديث الغزالي ليس معناه أن هذا الأمر حكمه سنة ، ولكنه يعني بها طريقة وعملا ، بدليل أنه يعنون في كتابه (الإحياء) لهذه المباحث ، فيكتب الباب الأول في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. ويذكر إجماع الأمة عليه . وهذه حقيقة : (ولا نجد أحداً من العلماء المتقدمين أو المتأخرين لم يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساساً للدين ، وفريضة عظيمة من فرائض الأمة الإسلامية)^(١) ويقول ابن حزم : (اتفقت الأمة كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منهم)^(٢) .

ويذكر الجصاص : (أكد الله تعالى فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواضع من كتابه ، وبينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخبار متواترة عنه فيه ، وأجمع السلف وفقهاء الأمصار على وجوبه)^(٣) . ويرى الإمام ابن تيمية أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله ، من أظهر أحكام الشريعة المتواترة ، فإن أهملت طائفة من الأمة وجب على الدولة المسلمة محاربتها .

يقول شيخ الإسلام : (كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفاق أئمة المسلمين وإن تكلمت بالشهادتين ، فإذا أقروا بالشهادتين وامتنعوا عن الصلوات الخمس وجب قتالهم حتى يصلوا .. وكذلك إن امتنعوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجهاد الكفار إلى أن يسلموا أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون)^(٤) .

(١) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ص ٢٥ .

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، ج ٤ ، ص ١٧١ .

(٣) أبو بكر الجصاص : أحكام القرآن ، ج ٢ ، ص ٥٩٢ .

(٤) فتاوى ابن تيمية ، ج ٤ ، ص ١٨١ .

ولا يقدح في الوجوب الفهم الخاطئ لبعض آيات القرآن ، مثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم »^(١) ، حيث يفهمها البعض من ظاهر اللفظ بما يقلل من أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحقيقة أن الألفاظ التي تحتويها الآية تحتاج إلى تأمل ، حيث يجد المتأمل أن عدم ضر ضلال الآخرين مرتبط بأن يكون الشخص مهتدياً ، وهو لا يكون مهتدياً إلا إذا أصلح نفسه ، وسعى لإصلاح غيره ، والذي يترك السعي لذلك فإنه جائر عن قصد السبيل مهما كان صالحاً متورعاً ، وهذا التأمل وهذه الإشارة هي روح الكتاب والسنة^(٢) .

بل الآية في الأمر بالمعروف كما ورد في مسند الإمام أحمد ، حيث ذكر قول أبي بكر الصديق في خطبة له : أيها الناس إنكم لتتلون آية من كتاب الله وتعدونها رخصة والله ما أنزل الله في كتابه أشد منها : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ، والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعقاب .

وفي رواية أخرى : سمعت رسول الله يقول : إن الناس إذا رأوا المنكر بينهم فلم ينكروه يوشك أن يعمهم الله بعقابه^(٣) .

وما كان اهتمام العلماء وإجماعهم إلا صدى لاهتمام القرآن والسنة بهذه المسؤولية ، فقد جعلها الرسول الكريم في أحاديث عديدة قرينة أسس الإسلام . كما اعتبرها مقياساً للحكم على الأفراد في خيريتهم ورسالتهم . ونورد بعض هذه الأحاديث :

(١) سورة المائدة ، الآية ١٠٥ .

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ص ٢٨ .

(٣) رواه أحمد ورواه الترمذي وابن ماجه .

١ - روت درة بنت أبي لهب أنه قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو على المنبر فقال : يا رسول الله ، أى الناس خير ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : خير الناس أقرأهم وأتقاهم وأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأوصلهم للرحم^(١).

٢ - وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتسليمك على أهلك فمن انتقص شيئاً منهن فهو سبه من الإسلام يدعه ، ومن تركهن كلهن فقد ولى الإسلام ظهره^(٢).

٣ - وروى عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)^(٣).

٤ - وعن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (والذي نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه فتدعون فلا يستجاب لكم)^(٤).

٥ - وعن جابر أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أوحى الله عز وجل إلى جبريل عليه السلام أن اقلب مدينة كذا وكذا بأهلها . فقال : يارب ، إن فيهم عبدك فلاناً ، لم يعصك طرفة عين . قال : فقال اقلبها عليه وعليهم ، فإن وجهه لم يتمعر في ساعة قط)^(٥).

(١) رواه أحمد في مسنده ، ج ٦ ، ص ٤٣٢

(٢) رواه الحاكم ، ج ١ ، ص ٢١

(٣) رواه أحمد والترمذي . (٤) رواه الترمذي .

(٥) رواه البيهقي في شعب الإيمان .

ومن هذا كله يفهم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر طريق لتحقيق رسالة الإنسان في هذه الأرض ، حيث يصلح نفسه ، ويسعى إلى إصلاح غيره ، ويبلغ نور دعوته للعالمين ، ويتحمل في سبيلها وفي الحفاظ عليها ما يجعله خليفة ينقل الدين من جيل إلى جيل ، خلفاً عن خلف ، وبذلك تتحقق أمانته ورعايته لها ، ويتحقق معنى العبادة الذي يستلزم المعرفة والطاعة ، وذلك لا يكون إلا فيما أمر الله ونهى ، على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يستلزمان إعداداً خاصاً ، وتهيئة لهذه المهمة .

فيستلزمان بدء الإيمان بهما عن قناعة ويقين ، لأن هذا الاعتقاد يحمل صاحبه على التضحية في سبيل إنقاذ مهمته ، وبخاصة إذا كان يدرك أنها مهمة لها شأنها ، فهي إصلاح للنفس أولاً ثم إصلاح للغير بعد ذلك ، وإصرار في كلتا الحالتين على الوصول إلى الهدف ، فلا تردد ولا سماع للمشيطين ، ولا استكثار لما يبذل في هذا الطريق من جهد أو مال ، بل وحتى النفس تبذل رخيصة في سبيل الله .

ويستلزمان كذلك - وبناء على ما سبق - معرفة بالشرع والحلال والحرام ، والدعوة وطرقها ومناهج الدعاة ، وضرورة هذا كله أن الجسم المظلم لا يشع وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولا يتصور أن يكلف إنسان بالدعوة إلى شيء هو لا يعرف حقيقته ، ولا خصائصه ، ولا أسرارها ، ففي هذا التكليف تخط لمقتضيات الأمور ومعاكسة ومناقضة لطبائع الأشياء .

إذن فمعرفة الإسلام والوقوف على خصائص تشريعه أمر ضروري لمعرفة المعروف وتحديد المنكر ، لأننا لا نحسن بقولنا ولا نقبح بها ، ولكننا نقف عند حدود الأمر والنهي كما ورد بهما الكتاب والسنة .

وليس في هذا التكليف عنت أو إرهاب بالنسبة لعوام الناس ، لأن مهمتهم في هذا الصدد تتحدد بقدر معرفتهم دون تقصير منهم أو تجاهل للواجب في هذا الصدد ، وهم بهذا القدر يدعون الخير بسلوكهم وبما يستطيعون من فهم وتبليغ .

ويستلزمان بصيرة مستنيرة بالحق ، وبصراً واعياً به ؛ لأن الدعوة طريق إلى حق ، والطرق إلى الحق يكتنفها أعداء الحق ، فلا بد من معرفة مسار الطريق وعقباته ، وأن يكون هناك تصور لكيفية التغلب على هذه العقبات ، ولهذا ماله من ضرورة التعليم لبعض العلوم والمعارف .

والإنسان المتحمل لهذه المسؤولية يدرك تبعاتها في أن خسارة عدم نجاحها تعود عليه قبل أن تعود على غيره ، ولو تصورنا أن هذا الإحساس خالط سلوك كل فرد من بني الإنسان لكان لنا أن نتصور عالماً ناعماً بالخير بعيداً عن الشرور التي تملأ علينا حياتنا ونعاني منها .

كذلك فإن هذه المسؤولية مع صعوبتها هي قدر الإنسان لأنه إنسان . ونحن لم نتمتع ببحث كل المسائل التي تتصل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لأنها ليست من خطتنا ، ويكفيها هنا الاستدلال على صحة ما نذهب إليه مما هو من صميم بحثنا (مسؤولية الإنسان) . فالذي يهمنى هو أن نقرر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مسؤولية الأمة المسلمة ، وهو ميدان إيجابية الفرد المسلم ، وهو بهذا يعتبر العمل الذي يمثل نشر الدين والحفاظ عليه ، قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ، وهو مسؤولية الإنسان ومناط تكريمه ، وانحراف إنسان ما عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء جميعاً ، يضره هو ولا يضير معنى المسؤولية ، وسيجيء كلام في هذا إن شاء الله .

(ليست الدعوة إلى الدين بعمل بسيط كل البساطة ، ولكنها مع افتقارها إلى الوعظ والنصح والتذكير والتنبيه حيناً ، تتطلب عرض الدين بأسلوب علمي خالص ، وتقريره بالحجج والبراهين ، حيناً آخر ، وهذا النوع العلمي الاستدلالي من خدمة الدين هو أحد وجوه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يشمل عامة الجهود المبذولة في سبيل الدعوة إلى الدين ، ومن مقتضيات الطبيعة اللازمة أن يدعى الناس إلى دين الله وينهوا عن الشرك والكفر والتكذيب بالرسالة ومخالفة الشريعة ^(١) .

أجل هو صلب رسالة الإنسان - ولا إنسان إلا المسلم - يتحملها كل قدر طاقته ويؤدي دوره وفق قدراته ، دون نكوص ، أو خيانة للأمانة .

وبعد .. فلعل كل ما ذكرنا من ألفاظ المسؤولية المتعلقة بالإنسان يؤدي معنى متقارباً إن لم يكن متحداً ، فالخلافة تعني القضاء بالعدل والدين جيلاً بعد جيل ، والعبادة تعني كل جهد مبذول من أجل الله وطاعته فيما أمر ونهى حتى ولو كان في ميدان عمارة الحياة ، والأمانة تعني الدين والفروض والتكاليف ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعني تجميع كل هذه المهام في أمرين اثنين ، هما جماع الخلافة والأمانة وحق العبادة ، وهما إصلاح النفس وإصلاح الغير وفق ما أمر الله ونهى . ولعله وضح الآن - ما سبق أن أشرنا إليه - أن الإنسان هو الكائن المكلف المسئول .

العتاب للإنسان مسئولية

من واقع مسئولية الإنسان عن فهم الدين وإقامته ونشره تجيء آيات تعتب على الإنسان كفرانه بالنعم ، وعدم إيمانه بالله واليوم الآخر. وهذا العتاب يحمل في طياته أن الإنسان مسئول وأن ما منحه الله إياه من النعم ومظاهر التكريم ، إنما هي مقتضى من مقتضيات المسئولية وليست ممنوحة لذاتها ، إذ لو كانت كذلك لما كان للعتاب عليها واللوم على تجاهلها نفس المعنى الذى تعطيه حين يكون العتاب لخلوق مسئول كلفه الله فأعانه وهياً له ميسرات التنفيذ ، فإذا بعد هذا ولم يع المقصود من التكريم ونسى ذاته فإنه جدير باللوم . ولنأخذ مثلاً قوله تعالى : « أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم » قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون » (١).

وقد نزلت هذه الآيات فى كافر - اختلف فى شخصه - جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده عظم رميم وهو يفتشه ويذروه فى الهواء وهو يقول : يا محمد ، أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : (نعم يبعثك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار) . والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى تنطبق على كل من خان الأمانة ، فلم يؤمن بالدين ومنه البعث والثواب والعقاب .. يقول ابن كثير : (والألف واللام فى قوله تعالى : « أولم ير الإنسان » للجنس يعم كل منكر للبعث . « إنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين »

(١) سورة يس ، الآيات ٧٧ - ٨٠

أى أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ، فإن الله ابتداء خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شئ حقير ضعيف مهين ، كما قال عز وجل : « ألم نخلقكم من ماء مهين ، فجعلناه فى قرار مكين » إلى قدر معلوم . وقال تعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج » أى من نطفة من أخلاط متفرقة . فالذى خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته ، كما قال الإمام أحمد فى مسنده : حدثنا أبو المغيرة حدثنا جرير حدثني عبد الرحمن بن ميسرة ، عن جبير بن نفير عن بشر بن جحاش قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصق يوماً فى كفه فوضع عليها لإصبغه ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قال الله تعالى : بنى آدم أنسى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت حتى إذا بلغت التراقي قلت أتصدق وأنسى أوان الصدقة ؟) .. ولهذا قال تعالى : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم » أى استبعد إعادة الله تعالى ذى القدرة العظيمة التى خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ، ونسى نفسه وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحدته ، ولهذا قال عز وجل : « قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » (١).

ولأن التذكير للإنسان بخلقه أمر ملموس له ومشاهد ، وفيه من التكريم ما فيه وجدنا اللوم لهذا الإنسان الذى ينكر البعث وبه يخون الأمانة ينصب على هذا التذكير ، رعاية من القرآن لمنهج فى عرض الحقائق مبسطة ميسرة ليس فيها تعقيد قضايا المنطق ولا مقدمات الاستدلال العقلى أو الفلسفى ، ولكنه يذكر من يخون الأمانة بما يشير

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٧٢

الآية في كتاب الله تعالى : « في أى صورة ما شاء ركبك » . قال : شكك . وقوله : « كلا بل تكذبون بالدين » أى إنما يحملكم على مواجهة الكريم ومقابلته بالمعاصي ، تكذيب في قلوبكم بالمعاد والجزاء والحساب . وقوله تعالى : « وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون » أى وإن عليكم ملائكة حفظة كراماً ، فلا تقابلوهم بالقبايح فإنهم يكتبون عليكم جميع أعمالكم ^(١) .

والتذكير بالكتب الحافظين يعنى - والله أعلم بمراده - إعادة الإنسان إلى الصواب ، حيث يخيل له شيطانه أن أعماله هذه ومنها التكذيب بالبعث ، لا ترصد ، ولا يحاسب عليها ، فيذكره الله سبحانه أن له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، وأن هذا الإنسان ما يلفظ من قول إلا ويسجله عليه الرقيب والعيتد . وحين يكون أمر الإنسان كذلك ومبعثه التكذيب بيوم البعث وهو صلب الأمانة ، لأن من صفات الإله المعبود كما جاء على لسان سيدنا إبراهيم الخليل : « والذي يميني ثم يمين * والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين » ^(٢) . وهنا يكون التذكير بالخلق من العدم وما يوحى به من قدرة على الإعادة بعد الموت . « إن كل نفس لما عليها حافظ * فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب * إنه على رجعه لقادر * يوم تبلى السرائر * فإله من قوة ولا ناصر » ^(٣) .

« فلينظر الإنسان مم خلق » تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذى خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ، وإن من قدر على البداء فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى ، كما قال سبحانه : « وهو الذى

(١) تفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٨١ و ٤٨٢

(٢) سورة الشعراء ، الآيتان ٨١ و ٨٢

(٣) سورة الطارق ، الآيات ٤ - ١٠ -

يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » ^(١) . والآيات في هذا الصدد كثيرة وما ذكرناه مجرد أمثلة يتضح من خلالها أن الإنسان - كما حددته آيات الأمانة والمسئولية - هو المخلوق المكلف المسئول ، ومسئوليته تتحدد بحفظه للدين وإقامته ثم نشره خلفاً بعد خلف إلى كل بقاع وزمان ، وحين يكفر بركن من أركان هذا الدين كالإيمان باليوم الآخر - وقد كان ولا يزال أبرز ركن يكفر به بعد إنكار الألوهية - فعنايه أنه كفر بالأمانة التى حملها وتحملها ، وهنا ينطبق عليه وصف الظلوم الجهول ، لأنه جهل خلقه أو تجاهله ، وجهل النعم التى يرفل فيها ، والتسخير الذى هيا الله له به الحياة ، جهل كل هذا وأهمها الخلق ، سواء لنفسه ، أوللسموات والأرضين وما فيهن من مؤشرات القدرة ودلالات الفضل والعظمة الإلهية ، وحين يجهل هذا فهو ظلوم ، بالغ في ظلم نفسه حين رد على كرم الكريم بالعصيان والجحود .

من أجل هذا تأتى آيات العتاب لتذكره بما جهل وتعيده الى الصواب حتى لا يظلم نفسه ويعرضها لغضب الله بسبب هذا الكفران التى يعيش فيه . وهذا العتاب كما أفهم لمسئولية الإنسان وتذكير بها ، وليس حكماً عليه بالعقاب أو العذاب الأليم في الدنيا ، أو الآخرة أو فيهما معاً .

وعليه فإن الإنسان المسئول هو ذلك المخلوق الذى يتميز عن غيره بما كرمه الله به ومسئوليته حقيقية ، وهى حقيقة تفرد القرآن ببيانها وتخبط العلوم حين حاولت بيانها ، لأنها لم تنطلق من منطلق قرآنى في دقته وشموله . وإذا كانت هذه هى حقيقة مسئولية الإنسان ، فواصلتها بالتكريم إذن ؟

(١) ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤٩٨

الصلة بين التكريم والمسئولية

اقتضت حكمة الله سبحانه أن يخلق مخلوقاته لغاية في هذا الكون ، وشملت هذه الحكمة خلق الإنسان المكلف المسئول ، كما حددت هذا آيات ، منها قوله تعالى : « يحسب الإنسان أن يترك سدى »^(١) . وقوله سبحانه : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون »^(٢) .

كما اقتضى عدل الله سبحانه ألا يكلف نفساً إلا وسعها . ومن خلال هذين الأصلين - حكمة الله وسبحانه وعدله - ننظر إلى الصلة بين تكريم هذا الإنسان وبين مسئوليته .

ولقد وصف القرآن الإنسان بأنه المخلوق المكلف المسئول ، وحددت هذه المسئولية آيات كريمات هي قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً »^(٣) .

وقوله سبحانه : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون »^(٤) .

وقوله سبحانه : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »^(٥) . وقوله سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »^(٦) .

(١) سورة القيامة ، الآية ٣٦ (٢) سورة المؤمنون ، الآية ١١٥

(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٧٢ (٤) سورة البقرة ، الآية ٣٠

(٥) سورة الذاريات ، الآية ٥٦ (٦) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

ويكاد يجمع المفسرون لهذه الآيات على أن المقصود منها هو فروض هذا الدين ، إقامته والمحافظة عليه ، وحمله خلفاً عن خلف ، وجيلاً بعد جيل .

وإذا كانت المسؤولية بهذا المعنى هي دور الإنسان فإنه ولا شك دور صعب يقتضى قوة في البدن واستقامة ، كما يقتضى راحة في العقل ، وحرية في الاختيار ، كذلك فإنه يقتضى أن تساعد الحياة هذا المخلوق في مهمته حتى لا يجتمع عليه همان : صعوبة مسئوليته ، ومعاكسة الحياة له ، ومن هنا لزم الإنسان كذلك هداية الرسل . فصعوبة هذه المهمة اقتضت وفق عدل الله « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » أن يعان عليها الإنسان ، وقد أعانه الله عليها وأعد لها بما نفهمه على أنه مظاهر تكريم الله للإنسان ، وهو تكريم - ولا شك - غير أنه ليس مقصوداً لذاته ، ولكنه إعداد وتهينة للدور المنوط بهذا الكائن المسئول .

ونشير هنا مجرد إشارات إلى مظاهر التكريم هذه ، حتى يتسنى لنا فهم الصلة التي أشرنا إليها .

١ - التكريم في الخلق والتسوية :

انظر قوله تعالى : « يأياها الإنسان ما غرّك بربك الكريم » الذي خلقك فسوّك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك » (١) .

وقوله سبحانه : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم » (٢) .

وقوله سبحانه : « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ، ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » (٣) .

(١) سورة الانفطار ، الآيات ٦ - ٨ (٢) سورة التين ، الآية ٤ (٣)

(٤) سورة الأعراف ، الآية ١١ (٥) سورة الأعراف ، الآية ١١

وقد أجمع المفسرون على أن الخلق الحسن والتسوية يعنيان اعتدالاً في القامة وقوة في الجسم وتكاملاً ، وهذا كله لازم لدور الإنسان ، وقد أثبت البحث العلمي قدرة الجسم على التكيف ، واحتواءه لخاصية التكامل .

٢ - تكريم الله للإنسان بالعقل :

يقول سبحانه : « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير من خلقنا تفضيلاً » (١) . وذكر الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية آراء المفسرين في عموم التكريم ، ثم قرر أن المعول عليه العقل ، لأن به يفهم الكتاب ، وتدار الأمور ، فإذا أضفنا إلى هذا كله فواصل الآيات المنتهية بـ « لعلمكم تعقلون » ، « لعلمكم تذكرون » وماشابهها ، أدركنا أن الله أعان الإنسان على دوره بالعقل وهو لازم لدوره ، لأن نشر الدين يقتضى فهمه ومعرفة أصوله ، وهذا يكون بإعمال العقل .

ومن فضل الله أن يثبت العلم أن إعمال العقل لا يكلف الجسم مثلاً يكلفه حمله لعدد من الجرامات فوق كتفه ، وكأن الله أعد العقل ليعمل لا ليجمد .

٣ - تكريم الله للإنسان بالحرية والاختيار :

وهذه خاصية يستلزمها التكليف بالمسؤولية ، ولا يتصور أن تصدر الأوامر والنواهي لمن لا يملك اختيار هذه أو تلك . ونشير هنا إلى قوله تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (٢) . وقوله سبحانه : « بل الإنسان على نفسه بصيرة » ولو ألقى معاذيره » (٣) . وقوله سبحانه : « ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه » (٤) .

(١) سورة الإسراء ، الآية ٧٠ (٢) سورة الرعد ، الآية ١١ (٣)

(٤) سورة القيامة ، الآيتان ١٤ و ١٥ (٥) سورة النساء ، الآية ٦٨

٤ - تهيئة الحياة للإنسان :

بعد أن هيا الله الإنسان للحياة بالجسم والعقل والحرية ، هيا الله الحياة له ، حتى قال الراغب الأصفهاني : إن كل شيء مخلوق في هذا العالم إنما هو من أجل الإنسان^(١). وآيات التسخير عديدة ، نذكر منها قوله تعالى :

« وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار »^(٢) .
وفوله سبحانه : « الله الذي سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »^(٣) . والماء والطعام وغيرهما مما حوته آيات القرآن في مواضع عديدة منه .

٥ - إرسال الرسل :

ولصعوبة مهمة الإنسان لم يتركه الله سبحانه يتعامل مع هذا الكون بعقله هو ولا باختياره وهواه ، ولكنه سبحانه رشد هذا التعامل بأن أرسل الرسل ومعهم الهدى والكتب :

« وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا »^(٤) .

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »^(٥)

ومما سبق يتضح أن التكليف جاء متوافقاً مع الإعداد له ، ووهب الله الإنسان ما يناسب وظيفته (الخلافة والعبادة وحمل أمانة الدعوة) بلا نقص ولا زيادة ، وهناك من الأمور ما لا يحتاج إليه الإنسان في وظيفته ، لذا لم يمنحه الله من الطاقات أو لم يطلب منه أن يلج هذا

(١) الراغب الأصفهاني : الذريعة إلى مكارم الشريعة ، ص ١٦

(٢) سورة إبراهيم ، الآية ٣٣ (٣) سورة الجاثية ، الآية ١٢

(٤) سورة الإسراء ، الآية ١٥ (٥) سورة النساء ، الآية ١٦٥

المجال ، إما لصعوبته وتحديد قدراته وقد أراد الله ذلك ، ولما لأنها لا تلزم له في النهوض بوظيفته المحددة كذلك .

من هذه المسائل مسألة كنه الذات الإلهية ومسألة الروح وعلم الساعة وما شابه هذه من مسائل حظرت على الإنسان ، ولم يزود بطاقات لها ، ولم يطلب منه دخول مجالها لما سبق ذكره من أسباب^(١) .

على أن حرمان الإنسان من مثل هذه الطاقات لا ينقصه ولا يجعله حيواناً ككل الحيوانات ، إذ من الواضح أن الآيات التي قصر القول فيها على خلق جسد الإنسان لم تخل مما يوحى إلى المخلوق المسئول أن أطوار خلقه سوى إعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية ، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب^(٢) .

واحتواء البناء الإنساني لطاقات كالنفس والعقل والروح مع اختلاف طبائعها فيما بينها ، ثم تيسير أدائها لمهامها دون تناقض أو اضطراب ، كل هذا يؤكد أن هذا الإعداد إنما هو طريق للتكليف للاحالة ، وأن التكليف هو محك جدارة الإنسان بهذا التكريم أو قضائه على نفسه بالهبوط عن سمو إرادة الله له .

(ولعلنا نفقه من هدى القرآن ترتيب هذه القوى في الذات الإنسانية وعمل كل منها في القيام بالتكليف ، وتميز الإنسان بمنزلة الكائن المسئول)^(٣) .

إذن نستطيع القول بأن الصلة بين التكريم والمسئولية هي صلة الأسباب بالنتائج ، فالتكريم سبب ظاهري للتكليف ، وبدونه يصبح

(١) خصائص التصور الإسلامي ، ص ٧٨

(٢) الإنسان في القرآن ، ص ٧٨ (٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٩

التكليف موضع نظر من منطلق عدل الله ورحمته ، وعدم التكليف لا يتصور مادام الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وسخر له الكون ، وأرسل له الرسل (وإذن فهي المشيئة العليا تريد أن تسلم هذا الكائن الجديد في الوجود زمام هذه الأرض ، وتطلق يده فيه ، وتكل إليه إبراز مشيئة الخالق في الإبداع والتكوين ، والتحليل والتركيب .. وإذن فقد وهب هذا الكائن الجديد من الطاقات الكامنة والاستعدادات كفاء ما في هذه الأرض من قوى وطاقات وكنوز وخامات ، ووهب من القوى الخفية ما يحقق المشيئة الإلهية)^(١) .

كيف يحقق الإنسان إنسانيته

يصاب الإنسان بالحيرة ويغشاه الدوار ، حين ينظر إلى نفسه من زاوية واحدة ، فإنه إذا نظر إلى أنه مخلوق مميز مكرم ، تاه وطمى ، وضل وعربد ، وفي حالات الإفاقة يصيبه الدوار ، لأنه مع هذا الذي يفعل لا يشعر بالراحة وينعم بالأمان .

وكذلك إذا نظر إلى التبعات التي عليه دون أن يفتن إلى أنه معان عليها يصيبه الدوار من ثقل ما عليه .

ولا تكون هذه الحيرة إلا لمن أعرض عن ذكر الله وعرض نفسه للضنك الذي يعنى ضيقاً في الصدر ، وإن أكل الإنسان ما أكل ، وشرب ما شرب ، وسكن ما سكن : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى » ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً »^(٢) .

لكن الإنسان المسلم لا يرى في التكريم مبعثاً على الغرور والانتشاء ، بل ينظر إليه على أنه نعمة خلقت لتؤدي دوراً هو شكرها ، وشكر المنعم

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج ١ ، ص ٦٧ ، طبعة دار الشروق .

(٢) سورة طه ، الآيات ١٢٣ و ١٢٤ .

عليها ، فعنده أن التكريم طريق المسؤولية وهي شرف للإنسان ، تتحقق إنسانيته بها وبالإيجابية فيها .

والمسلم يدرك أنه مسئول عن البشرية ، لأنه فهم من معنى الخلافة والعبادة والأمانة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم من كل هذا مسئولية العامة ووجد صدق فهمه هذا في قول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »^(١) . وقوله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »^(٢) .

ويتجمع لدى المسلم إيمان عميق بدوره هذا وإيجابيته ، كما يستشعر قيمة الإيمان بالمثل العليا ، لأنه جزء من تحقيق الإنسان ذاته ، وبغيرها يهوى إلى حضيض الحيوانية ، ويؤمن كذلك بأن العبودية لله القاضية بكل هذا الدور هي أشرف تقييم وتقدير له ، وأن رعاية الله له تكون بقدر فهمه لهذه الحقيقة وتنفيذه لها ، ومن هنا يحقق المسلم ذاته ويجد إنسانيته ، إن أراد ذلك .

وإيجابية المسلم تنطلق من عقيدته ، فيشعر بأنه قوة فاعلة في ذات نفسه ثم في الكون كله ، ذلك أن الإيمان عنده مرتبط بالعمل كما يعلم من آى القرآن وأحاديث الرسول .

« إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - ثم لم يرتابوا - وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون »^(٣) .

« والعصر إن الإنسان لفي خسر » إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات * وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »^(٤) .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

(٣) سورة الحجرات ، الآية ١٥ (٤) سورة العصر ، الآية ١

فإيمانه عمل لا يعرف السلبية ولا اجترار المفاخر، بل عليه أن يؤدي دوره . . يؤديه مع نفسه ، فيطابق بين عقيدته وسلوكه ، وهذا من مقتضيات الأمانة والطاعة والخلافة . . ويؤديه مع غيره حين يدعوهم إلى النور الذي أحس ، يدعوهم لينجوا من عذاب الله وليكون قد أدى حق الإسلام عليه ، ويدعوهم ليعيشهم في الخير الذي يعيش فيه ، لأنه يعلم أن البشر إخوة ، وأن تبعة ضلال الناس - إذا ضلوا - إنما تقع على عاتقه هو ، ما لم يبين لهم بعد أن عرف هو وتبين . وهي تبعية ثقيلة تؤرق ضميره ، وتثقل بكاهله ، لكنها تبعة الرسل ، وهو مستخلف عن الرسل في حمل الدين إلى العالمين .

وهو يقوم بهذا الدور لأنه يدرك أنه مستخلف ليلبغ الدين وينشر الحق والخير ، وأنه معان على هذا بما أودع الله فيه من أسرار وعرفه من نواميس الكون ، لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص ، إنه طريق أشق ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان ، أي يحقق انتصار النفحة العلوية في كيانه ، وهذا هو الانطلاق ، انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي وتحقيق حقيقتها العلوية ، وهي العمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم (١) . وشعوره هذا يدفعه إلى العمل ويخرجه من دائرة السلبية البغيضة ، إذ يعلم أن قدر الله ينفذ فيه والأرض من حوله ، عن طريق حركته هو ذاته . وهو لا يعلم هذا فقط ، بل يحيل علمه هذا إلى عمل دائم لإنقاذ البشرية التي تعاني اليوم من عدم فهم الإنسان لمسئوليته في هذه الحياة .

(وتصور المسلم للأمر على هذا النحو لا جرم يرفع من قيمته في نظر نفسه ، كما يرفع من اهتمامه بقدر ما يشعره بضخامة التبعة الملقاة على

(١) في ظلال القرآن ، المجلد السادس ، تفسير سورة الإخلاص ، ص ٤٠٤

عاتقه ، وبثقل العبء الذي يحمله ويكدر فيه حتى يلاذ الله ربه ، وقد أدنى الأمانة وأدى الشهادة ، ووفى بحق النعمة فيما يملك من الطاقة وطمع في النجاة من عذاب الله ، وزحزح عن النار (١) .

لكن . . هل ما يريد المسلم أن يقدمه للبشرية شيء له قيمة في عالم المادة والماديين ؟ أجل له قيمة يدركها الماديون الآن أكثر من غيرهم ، لأنهم يفتقدون الأمن والطمأنينة ، ومؤشرات الانتحار والطلاق والتشرد تؤكد هذا ، وهم يتشوقون إلى متقد يقدم لهم هذا الذي يفتقدون ، فإن لم يعتقدوه ديناً ، فحسب المسلم أنه قدم لهم العلاج ، وهو محق من منطلقه هو ، لأنه ينظر إليهم بعين الرأفة ويدعو لهم بالهدى ؛ لأنهم مستعدون يرسفون في أغلال يحتاجون إلى جهاد لتحريرهم منها .

والمسلمون اليوم لا يقدمون لغيرهم علماً ولا خاتمة ، ولكنهم يقدمون لهم ما يسمى بتحرير الإنسان أو ميلاده من جديد ، لأن عالم اليوم كيوم قال رباعي بن عامر رسول جيش المسلمين إلى رستم قائد الفرس : (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام) .

والمسلمون وهم يملكون هذا ، يستطيعون تحرير الإنسان ، ليصنع حضارة غير قائمة على استعباد أحد لأحد ، أو استعباد الإنسان (٢) .

ومن هنا يكون إيمان المسلم بالقيم العليا ، لأنها تحل النفس الإنسانية السوية ، ولأنها ارتفاع بالإنسان عن حضيض الحيوانات البغيضة ، ومن أجلها جاء الرسل ونهض المصلحون ، فالإنسان إنسان بشرط أن يراعى

(١) خصائص التصور الإسلامي ، ص ٢٧٢ و ٢٧٣

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٨

ما به صار كذلك ، وإذا لم يدرك الإنسان هذه المعاني صار كالحیوان بل أضل ، وصار كما قال الله عنه : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون » . فبين أن الذين كفروا لم يستعملوا القوة التي جعلها الله تعالى لهم ، هم شر الدواب ، وقال : « مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء » (١) .

هكذا يكون الإنسان الكافر وإن ملك كل حضارة الدنيا : مادة وأرقاماً وعدداً وعتاداً .

أما المسلم فيدرك أن عبوديته لله شرف وكرامة ، وأن معنى العبادة الواسع الشامل يقتضيه أن ينظر إلى الناس بعين العطف وتحمل المسؤولية عنهم ، وهو بذلك يحقق إنسانيته .

فالإنسانية لا تتحقق بالفخر والتهب ، ولا بالمادة والعمران الدنيوي ، لكنها تتحقق بمقدار النجاح في الدور الذي حددته له آيات المسؤولية من إقامة العدل والعبادة بمعناها الشامل والأمانة التي هي الدين كله ، وتبليغه للناس لإنقاذهم مما هم فيه ، وتحريرهم من عبودية غير الله (٢) .

من هنا حق للأستاذ سيد قطب (٣) أن يصف هذه المهمة التي تحقق للإنسان ذاته بقوله : (على أن المهمة التي أناط الله بها الأمة المسلمة ، ليست هي مجرد هداية الناس إلى الخير الذي جاء به الإسلام وحماية العقيدة الإسلامية وأصحابها ، إنها أكبر من ذلك وأشمل .. إنها كذلك

(١) الذريعة ، ص ١٦ ، الإنسان من المادية والإسلام ، ص ٢٨٣ .

(٢) قد اكتفينا بالإشارة إلى بيان حقيقة الإنسان وهي المسؤولية وكيف ينفذ حقيقته ، لأن التفصيل هنا يستلزم الحديث عن وسائل استخدام التكريم الإلهي في القيام بالمسؤولية ، وهي في نظرنا العلم والعمل والوقت ، وهذه موضوعات تحتاج إلى بحوث مستقلة ، فضلاً عن أنها عولجت ولو بطريقة جزئية في بحوث أخرى . (١)

(٣) سيد قطب : نحو مجتمع إسلامي .

حماية العبادة والاعتقاد للناس جميعاً واستبعاد عنصر القوة المادية من ميدان الاعتقاد والعقيدة ، وحماية الضعفاء من الناس من عسف الأقوياء ودر الظلم أيّاً كان موقعه وأياً كان الواقع عليه ، وكفالة القسط والعدل للبشرية كافة ، ومقاومة الشر والفساد في الأرض بحكم الوصاية الرشيدة التي أناطها الله بهذه الأمة ، إذ يقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » (١) .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » (٢) .

ونجيب على السؤال المطروح

لعله وضح من خلال ما سبق في باب المسؤولية أن الإنسان بحكم ميزة أو مسئولية هي سبب تكريمه كل هذا التكريم ، وهذه الميزة ليس تسبيح الإنسان وتحميده ، لأن هذه يشاركه فيها كل مخلوقات الله ، تخبر آيات ، مثل قوله تعالى : « سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم » (٣) ، وقوله سبحانه : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » (٤) .

وقد قالت الملائكة لله سبحانه حين أخبرهم بخلق الإنسان : « إن جعلناك خليفة في الأرض فاحملها » ، وقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . ومعناه أن الملائكة لم يعتبروا التسبيح سبباً لخلق هذا الإنسان ، لأنهم يقومون بهذه المهمة ولا يعصون ما أمرهم ، عكس الإنسان الذي يفسد ويسفك الدماء .

وليست هذه الميزة هي الطاعة لله عز وجل ، إذ الطاعة في عمومها مركوزة في جبلة مخلوقات الله ، ما يعقل منها وما لا يعقل « ثم استوفوا

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ (٢) سورة البقرة ، الآية ١٤٣

(٣) أول سورة الحشر . (٤) سورة الإسراء ، الآية ٤٤

إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً ، قالتا أتينا طائعين» (١).

وحين عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال أبين أن يحملنها وهى ترتبط بالثواب والعقاب ، وقلن لله سبحانه : نحن نطيع أمرك ونمثل لمشيئتك .

أما الميزة التى تميز بها هذا الإنسان وكرم من أجلها كل هذا التكريم ، فهى الخلافة التى تعنى تنفيذ عدل الله ومنهجه ، قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل ، وهى العبادة بمعنى الخلافة وشموها لكل نشاط إنسانى من أجل الدين ونشره ، وهى الأمانة التى تعنى الدين كله بما يستلزمه هذا المعنى من الحفاظ عليه وتبليغه جيلاً بعد جيل ، وترجم كل هذا فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، بعبارة أخرى ميزة الإنسان على كل الكائنات أنه المخلوق الوحيد الذى ينقل الدين من جيل إلى جيل ، ولهذا أثره فى استمرار الدين وخاتمية هذه الرسالة .

وما أظننا أضفنا جديداً هنا غير الذى فهم من تسلسل المباحث السابقة ، لكننا نريد أن نذكر والذكرى تنفع المؤمنين ، بأن مخلوقات الله كثيرة تؤدي أدوار يؤديها الإنسان . غير أنه يتميز على كل هذه المخلوقات بميزة حفظه للدين وجهاده من أجله . وهذه الميزة كما أشرنا هى مقياس إنسانيته ، فبقدر نجاحه فيها يكون تحقيقه لإنسانيته ، وبقدر إخفاقه أو تجاهله لهذه الميزة يكون هويته وهبوطه إلى درك أقل بكثير مما ميزه الله من أجله .

ولا يظن ظان أن تلك ميزة تعنى كسباً ، بل هى ميزة تعنى تبعة وهما دائماً فليست أمور الحفاظ على هذا الدين ونشره بين الناس ، لأنه رحمة

للعالمين ليست شيئاً آلياً يضغط على زرّه فيتحقق للإنسان ما يشاء ، ولكنها حسابات تحتاج إلى بنية قوية ، وعقل رشيد ، وإرادة حازمة ، وجو مهيباً لهذه الدعوة ؛ ودستور ينهل منه الإنسان ، ويرجع إليه حين يواجه المشكلة فى ممارسة عمله هذا .

وكل هذا الذى يحتاجه هذا العمل قد كرم الله به الإنسان وأعد له كيلاً يكون له على الله حجة ، أعنى أن هذا الذى ظنه الناس مزية وتكريماً فى ذات الإنسان والكون ليس لذات الإنسان ، بل هو من مقتضيات عمل يتحقق من خلال التكريم الحقيقى للإنسان .

وعليه فإننا ننظر إلى الإنسان - والمسلم هو الإنسان - على أنه مسئول أولاً ، وقد جاء تكريم الله له لأنه مسئول عن شئ هو صميم رسالة الرسل والأنبياء ، وبهذه الميزة استحق أن يعنى القرآن بالحديث عن خلقه ، وتسخير الكون له ، وأن يحشد له من الطاقات والإمكانات ما ييسر له القيام بمسؤوليته التى ميزته ورفعت مكانته عالياً .

فلا غرابة أن يكرم الله مخلوقاً يتحمل مثلاً تحمل الإنسان ، ولاحق للإنسان أن ينظر إلى دوره كمخلوق مكرم سخرت له الأشياء ، دون أن يعيد الفهم إلى صوابه ، فيفهم أن دوره هو أنه مسئول وأن فضل الله وعدله اقتضيا تيسيره لدوره وتيسير دوره له . ذلك أن قلب الفهم والتغنى بالميزات فقط أمر ينقص من قدر الإنسان ويحيله إلى آلة أو حيوان أو أى شئ غير الإنسان الذى تحدث عنه القرآن ، أما الفهم الصحيح فردوده فى أبسط صورة عطاء مستمر للسمو بالحياة والأخذ بيد الأحياء . فضلاً عن إخوته من بنى الإنسان .

فهل ننطلق منها ونتحمل مسؤولياتنا التزاماً وحفاظاً على الدين من أعدائه وتبليغه للناس نقياً كيوم جاء به رسول الله إلى العالمين ؟

لا بد من ذلك ومن الأخذ بأسبابه والمثابرة عليها لننعم بالحياة الدنيا، حيث نؤدى دورنا وتلك سعادة ما بعدها سعادة ، ثم نعم بما وعد الله به المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم .. وهذه هي حقيقة الإنسان كما تصورها القرآن .

تتمة ضرورية

قد يدرك القارئ لسطورنا التي مرت أننا نتحدث عن الإنسان من حيث هو إنسان ، ولكننا نقدم التصور الإسلامى ونستدل بتوجيه القرآن . وهنا قد يخطر على بال هذا القارئ شبهة - كسحابة صيف - مؤداها أن الإنسان ليس هو الفرد المسلم فقط . فإذا عن غير المسلم من بنى الإنسان ؟ ودون تعرض لطبيعة هذا الفهم نفترض أنه صحيح وقد قصد به بيان وجه الحق ، فنقول وبالله التوفيق .

أولاً : نحن ننطلق فى مسلكنا هذا من حقيقة أن المفترض فى الإنسان الذى ميزه الله بالعقل أن يكون مسلماً ، لأن الإسلام هو الأمانة ، وهو العبادة ، وهو الخلافة ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والقرآن يقرر هذا بقوله : « إن الدين عند الله الإسلام »^(١) وقوله : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »^(٢) . وقد ذكر القرآن أن عقيدة جميع الأنبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين ، وأن الشرع (التوحيد) الذى جاء به الإسلام هو الشرع الذى حملة الأنبياء قبل رسولنا ، لقول الله سبحانه : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه »^(٣) .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٩ (٢) سورة آل عمران ، الآية ٨٥

(٣) سورة الشورى ، الآية ١٣

ثانياً : نؤمن أن الرسل قبل الإسلام بينوا للناس حقيقة دور الإنسان ، وعرفوهم بلههم تعريفاً صحيحاً ، ولكن الانحرافات التى أصابت الناس لظروف كثيرة هى التى أضلت البشرية ، وأصبح ضرررة لإنقاذها أن يرسل رسولا بما ضاع من أذهان الناس ، ويقدم التصور الحقيقى لله والكون والإنسان^(١) . ولعلنا نذكر بما أشرنا إليه من قبل أن من أهل الكتاب من آمن بالله وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، ووصفه الله بأنه من الصالحين .

وإن بنى إسرائيل حين دخل عليهم النقص جاءهم من أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه كما سبقت الإشارة إلى ذلك . (كان أهل الكتاب فى عهد نزول القرآن قد تسرب إليهم فساد ، وخيم عليهم ضلال ، وقد حادوا عن الصراط المستقيم ، وتركوا دين الله الحق ، ولكن لم تزل طائفة منهم قائمة على سبيل الحق ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فأثنى عليها القرآن ، مما يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الشروط اللازمة للقيام على سبيل الحق)^(٢) .

إذن فتقديمنا التصور الإسلامى هو محاولة لتقديم الصواب ، متسامين بذلك على واقع الإنسان الذى انحرف لناخذ بيده إلى هذا السمو الذى أراده الله له .

ثالثاً : أما احتكامنا إلى القرآن فهذا ما نراه الصواب ، لأنه إذا تقرر أنه يحوى كل هدى سبقه وأنه كتاب الدين الذى هو عند الله هو الدين ، وأن القوم قبله عرفوا من أنبيائهم الهدى ، لكنهم ضلوا

(١) خصائص التصور الإسلامى ، ص ٣٧

(٢) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ص ١٧

وانحرفوا ، إذا تقرر كل هذا فليس بمقبول لدى العقل نفسه أن تترك المصدر الوثيق ونلجأ لنأخذ تصوراتنا عن الإنسان من بقايا كتب أصابها ما أصابها أو من تصورات بشر حاولوا فهم الإنسان ، فكان ما وضع بين يديكم في أول البحث من اعترافهم هم بالقصور الذي يداني الفشل .

إذن من الحق أن نلجأ إلى القرآن ونقيم عليه تصوراتنا ، لأن نذهب إليه لنحكم عليه بتصورات سابقة وثقافات أصابها ما أصابها من انحراف وضلال .

رابعاً : أن هؤلاء الأفراد أو الدول من جنس الإنسان الذين لا يعملون عقولهم ولا يجدون هدياً في كل ما ذكرنا ، هم حكموا على أنفسهم بضرورة إخراجهم من جنس الإنسان ، وهم بهذا خسروا الدنيا لعدم اعتبارهم ، والآخرة لأنهم حطب جهنم : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (١) ، وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم : « ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » (٢) ، هؤلاء لا حساب لهم إلا واجب انتشالهم مما هم فيه (٣) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٧٩ (٢) سورة محمد ، الآية ١٢

(٣) الذريعة ، ص ١٨ - د . فتحي عثمان : الأخلاق الإسلامية ، والأخلاق الوضعية : محاضرة أقيمت في كلية الشريعة ، جامعة الإمام .

وشبهة أخرى

على أن شبهة أخرى قد تعرض للذهن نتيجة لتركيزنا على الدور الدعوى للإنسان المسئول ، ونتيجة لإهدار إنسانية الماديين الذين لا يستغلون طاقاتهم فيما خلقت له كما حكى القرآن الكريم ، أقول نتيجة لهذين قد يثور في ذهن سؤال : وهل يحرم الإنسان الاستمتاع بمنجزات العلم الحضارية إذا هو تفرغ لدوره في الدعوة إلى الدين ؟ أو يحرم السباق في مجالها وتحقيق أمجاد علمية إن صح التعبير ؟ ودون الخوض في مناقشة طبيعة السؤال قوة أو ضعفاً نقول وبالله التوفيق :

أولاً : نحن نقدم الإنسان المسئول من خلال التصور الإسلامي وتصور الإسلام لأهمية العلم بعامة دون أن يقصره على فرع دون فرع ما دام كل ذلك لخدمة الحقيقة . وقضية الإنسان أمر جلي يجب أن ينظر إليه كجزئية بنائية من جزئيات التصور الإسلامي . وهنا ليس مجال بسط القول فيه ، لكن حسبنا أن نذكر بأن أول آية نزلت في القرآن كانت :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ... علم الإنسان ما لم يعلم » (١) . ويقول سبحانه :

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (٢) .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (٣) .

« إنما يخشى الله من عباده العلماء » (٤) .

(١) سورة العلق . (٢) سورة الزمر ، الآية ٩

(٣) سورة المجادلة ، الآية ١١ (٤) سورة فاطر ، الآية ٢٨

هذه الآيات ونظائرها وفواصل غيرها مما يحمل معنى التذكر والتدبر والنظر . كل هذا يظهر الموقف المبدئي للإسلام من قضية العلم تعلماً وتعلماً^(١) .

ثانياً : بناء على ما سبق يتقرر خطأ من يزعم أن بين الإيمان وبين العلم تناقضاً ، أو بين الإيمان بالروحانيات والدعوة وقضاياها ، وبين العلم تضارباً وصراعاً ، لأن الإيمان بالقيم العليا لا يمنع العلم أن يتقدم ويصل كل يوم إلى اكتشاف جديد .

(وقد كان العلم الوحيد على ظهر الأرض في فترة من فترات التاريخ هو ما يعرفه الشرق الإسلامي في الطبيعة والكيمياء والفلك والرياضيات ، ولن يمنع كذلك من استخدام الطائفة أو الصاروخ الجوى ، ومن احتلال القمر والمريخ ، ولكنه سيجعل لكل هذا غاية إنسانية نبيلة ترتفع على النفع المادى القريب)^(٢) .

ثالثاً : وإذا تبين هذا فإن ما يحرص عليه الإسلام هو ألا يهان الإنسان وألا يسقط نفسه من عداد الإنسانية دون أن يشعر ، وذلك ما وقعت فيه بعض المذاهب البشرية حين حصرت الإنسان في مطالب الغذاء والكساء والمسكن والإشباع الجنسى . والإسلام لا يرفض هذه وكل مطالب الجسد ، ولكنه لا يعتبرها غاية الوجود الإنسانى ، لأن حصر الإنسان في نطاق هذه الأشياء هبوط شائن وانحدار به من علياء الإنسان إلى حظيرة الحيوان .

وقد تنبه إلى هذا الأمر بعض الباحثين المنصفين من أبناء الغرب (يجب أن نحصر الإنسان من الكونيات التي خلقها علماء الطبيعة

(١) الإحياء للغزالي ، ج ١ ، ص ٢٧ - عمر عودة الخطيب : لمحات في الثقافة الإسلامية ، ص ٢٢٢ ، الطبعة الثالثة ١٩٧٩ ، الرسالة ، بيروت .

(٢) الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ٢٨٦

والفلك .. تلك الكونيات التي حبس فيها الإنسان منذ عصر النهضة ، إذ على الرغم من ضخامتها الهائلة فإن عالم المادة أضيق من أن يتسع للإنسان^(١) .

رابعاً : قد يخدع الإنسان بالمظهر المادى لحضارة غير المؤمنين فيظن أنها السعادة التي يبحث عنها وأنها نتاج العقل الذى يستخدم أمثل استخدام ، وللهولة الأولى قد يبدو هذا صحيحاً في شكله ، لكن اكتناه الأمر يظهر حقيقته ، فالغرب المادى يعانى من ضياع روحى تحمله مؤشرات التشرد والبطالة والانتحار والطلاق وغير هذا ، كما تدل عليه الإحصاءات الرسمية ، كذلك فإنهم يعانون من اضطراب عقلى ومن معاناة لأمراض عصبية ، وهذه شهادة واحد منهم^(٢) ، وليس من المسلمين الأمر الذى يجعلنا نلمس صدق قانون الله فى الإسعاد الذى هو « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً » . وقد أشرت إلى معنى الضنك ، وهو ألا يشعر الإنسان بالراحة والرضا وإن ملك كل شيء مادى فى الحياة .

ولعل هذا هو الذى جعل صاحب (سقوط الحضارة) يقول : (إن إنسان الغرب كان ميالاً دائماً إلى التأكيد على طاقاته العقلية ، وهذا هو السر فى تقدمه الهائل ، ولكنه فى الوقت نفسه سر تدهوره ، فهو يفقد القوة الروحية - المفهوم الحيوى الذى يحتفظ للنوع البشرى ببقائه ، وبدون هذا المفهوم الحيوى فإن كلمة التقدم تصبح مجرد سخرية ، بل إنها لتشبه سيارة لا وقود فيها)^(٣) .

(١) الإنسان ذلك المجهول ، ص ٣٥٧ - الإنسان بين المادية والإسلام ، ص ٧٣

(٢) هو الكسيس كاريل فى الإنسان ذلك المجهول ، ص ٣٤

(٣) كولى ولسن : سقوط الحضارة ، ص ١٦٨ - بين العلم والدين : د. نعمان

السامرائى ، بحث فى كلية الشريعة بالرياض ، ١٣٩٩ هـ .

فقدنا العمل ونفدنا لما لا العمل فيعمل به يهمل ولا كذا كذا
وغيره من ذلك... (١)

فقدنا العمل ونفدنا لما لا العمل فيعمل به يهمل ولا كذا كذا
وغيره من ذلك... (١)

(١) قوله تعالى: "فقدنا العمل ونفدنا لما لا العمل فيعمل به يهمل ولا كذا كذا"...

الخاتمة

ولعلني لأول مرة أشعر أن الخاتمة لا تعني نهاية العمل للأقدمه ،
بل أستشعر أنها بداية ونواة لأعمال تتصل بموضوع بحثنا هذا ، إذ بعد
أن تبين لنا أن حقيقة الإنسان هي مسؤوليته وأنه إنما كرمه للأجلها
أصبح مطلباً منهجياً أن يكون هناك بحث مستقل عن مسائل تحقيق
هذه الحقيقة في ضوء رسالة الإنسان ، وظروف عصرنا بما فيه
ومن فيه .

كما أتصور أن الإشارات التي ألحنا إليها عن تصور علم الإنسان
للإنسان تحتاج إلى بحث مستقل في مجال هذه العلوم كغير الجهود
علمائها ، اقتراباً وابتعاداً من الحقيقة القرآنية بخاصة ، وبصادر
الحقيقة الإسلامية بعامه .

هذا وغيره مما توحىه قراءة هذا الجهد المتواضع أثره بداية
لعمل وليس خاتمة لبحث ، وأرجو ألا أكون واهماً أن هذه
العجالة مهمتها الحقيقية عندي أنها تفجر قضايا وتثير علامات استفهام ،
تتكامل الإجابة عليها لتكون ما نحن بحاجة إليه من بيان حكم الإسلام
في تحركنا وسكوننا .

وبالنسبة للمادة المطروحة في هذا البحث لا بد من ملاحظة يلي :
أولاً : حين جعلت لعلوم الإنسان فصلاً خاصاً بمطالعتها كنت
أقصد إلى هذا قصداً ، ولكنني وجدتني حين المعالجة مفضراً إلى بيان
بعض الأحكام الإسلامية في مجال التعريف ومجال بيان طية الإنسان ،

وذلك ليتضح الفرق ، وتظهر الحاجة المنهجية ، فضلاً عن الواقعية إلى ضرورة الأخذ من الإسلام للحكم به على أفكار البشر - وإن اتسعت شهرتهم - وليس العكس ، فالإسلام حاكم لا محكوم .

ثانياً : تقديمنا التكريم على المسؤولية وبحثنا في حقيقته بحثاً ينطلق ليثبت غير ذلك مسوغ ومقبول ، لأننا أردنا أن نسير مع القارئ من نقطة بدء هي معلومة لديه ، والبدء بها يجعله يؤكد ما عنده ويتذكره جيداً من تكريم الله للإنسان ، فإذا نحن جئنا بعد هذا لنحدد حقيقة الإنسان في القرآن بالمسؤولية كان على ذكر لكليهما وتسهيل المقارنة والنظر ، وهنا لا تكثر له الإحالات حتى لا تشتتته ولا تضيق جهده ، وهما الأول قرار الحقيقة في عقله وقلبه ووجدانه .

ثالثاً : كان منهج الاختيار للنماذج هو طابع هذا البحث ، سواء في مجال علوم الإنسان كأمثلة تفيد دلالة فيما نقصد إليه ، أم في مجال اختيار النصوص القرآنية للاستشهاد بها على ما نذهب إليه ونفهمه من خلالها ، وهنا نقرر أنه بالنسبة للعلوم كان هناك مسوغ للاختيار هو أن علمي النفس والأخلاق أبرز ما يهتم بالإنسان في الجانب النظري - مع ملاحظة التجريب في علم النفس - وأن أظهر العلوم الطبيعية في هذا الصدد هي علوم الحياة ووظائف الأعضاء .

لكن بالنسبة للقرآن كنا نتخير من الآيات ما يدل على نقطتنا وفي ذهننا أن هناك من الآيات في هذا المعنى الكثير والكثير ، وحسبنا ما استدللنا به ، وقد أشرنا أحياناً إلى بعض غيره من الآيات فليس عندنا أساس للمفاضلة بين آية وآية في نقطة واحدة . وإن وجد بينهما من الفروق في الدلالات في مجالات أخرى .

رابعاً : في الحديث عن الإنسان المكرم ذكرنا أبرز مظاهر التكريم التي تمثل أطراً عامة تحتوى غيرها مما لم نذكر ، وللتفصيل كما قلت مكان آخر .

خامساً : الحديث عن المسؤولية باب متعدد المداخل ويتصل بكثير من ميادين الدراسة ، ولكننا هنا - كما أشرنا - عطينا المسؤولية العامة الكبيرة ، المسؤولية عن الالتزام بهذا الدين ، والحفاظ عليه من المشوهين والمحرفين ، ثم نشره لكل الأجيال في كل زمان ومكان ، وهي مسؤولية أم تلد كل المسؤوليات التي تشغل العلوم بها من أخلاق أو قانون أو غير هذا ، وإشارتنا إلى صعوبتها ليس للتنفير ولا للتهديد ، ولكن حفزاً للهمم ، وإيقاظاً للعقول ، وتنبهياً على أنها رسالة يجب أن توجه لها كل الطاقات ، وتوجيه الطاقات لها - بالتصور الإسلامي - يحقق للإنسان - أي إنسان - ما يحلم به في دنياه ، ثم يحظى برضا ربه ونعيمه في الآخرة إن كان من المؤمنين ، وإن كان من غير المؤمنين ، فحسب المؤمن أنه يضع في رأس هذا علامة استفهام قد تجره بعد حين إلى تفهم حقيقة ما هو عليه من زيغ واضطراب ، وهنا تكون مسئوليتنا نحن المسلمين عن كل هؤلاء الحيارى المضيعين .

سادساً : لعل هذا البحث الموجز يرد ولو بالإشارة على الماديين والعقلانيين ومصنفي البشر الذين يبذلون همهم في تقطيع أوصال الكيان الإنساني ، جزئية هنا وجزئية هناك ، كي يظلوا الهداة في نظر الحيارى المضللين ، ولكن صحوة الإسلام في أهله سوف تسد على هؤلاء منافذهم لتتخذ هؤلاء الحيارى من عبادة هؤلاء وأفكارهم إلى عبادة الله الواحد القهار .

وبعد :

فإني أسأل الله أن أكون قد وفقت في وضع الإنسان موضعه اللائق ، وأن أكون قد أوضحت له حقيقته التي وضحتها القرآن ، كي يشمر عن ساعد الجد ويتحرك ، لا يلوى على شيء ميمماً وجهه شطر دوره ورسالته ، ليشعر أنه إنسان على وجه الحقيقة .

فإن أكن قد أصبت ما استهدفته فتلك منة من الله ونعمة نحمده عليها ونسأله نعمة شكرها ، وإن تكن الأخرى فحسبي أني اجتهدت . وأسأل الله الأجر ، وأطمع في أن يكملني ويجعلني أهلاً للأجرين ، والله المستعان .

محتويات الكتاب

الصفحة	الموضوع
	الفصل الأول :
	الطبيعة البشرية في علوم الإنسان وبيانها في الإسلام :
١١	حول تعريفات العلوم للإنسان
١٤	تعريف القرآن
١٦	علم النفس وطبيعة الإنسان
٢٠	مهمة صعبة
٢٢	النفس الإنسانية في علم الأخلاق
٢٣	معنى النفس وأوصافها
٢٥	ضرورة التأديب للنوازع الشريرة في الإنسان
٢٨	محاسبة النفس
٣١	أمراض النفس وعلاجها
٣٤	سراهم البحث بهذه الدراسات
٣٧	دراسات في جسم الإنسان
٤٠	هل وضحت طبيعة الإنسان في تصور العلوم لها
٤٣	الإسلام وطبيعة الإنسان
	الفصل الثاني : الإنسان مخلوق مكرم من الله :
٥١	تكريم الله للإنسان
٥٤	(١) في مكونات الإنسان ذاته
٥٥	١ - الخلق والتسوية
٥٨	التسوية والنفخ

الموضوع	الصفحة
و صوركم فأحسن صوركم	٦٠
منافذ الإدراك	٦٣
٢ - العقل ... ميزة ... ومسئولية	٦٧
العقل .. والشرع	٦٩
عقل الحضارة العصرية	٧١
العقل .. والعلم	٧٢
٣ - حرية الإنسان	٧٤
حريتنا واقع وضرورة	٧٨
(ب) تهيئة الحياة للإنسان	٨٢
الزمان والمكان	٨٣
من حاجات الإنسان	٨٦
(ح) رسالات الله للإنسان تكريم له	٩٢
الفصل الثالث : حقيقة الإنسان في التصور الإسلامي :	
الإنسان مخلوق مسئول	١٠١
المسئولية في التعبير القرآني	١٠٣
الخلافة	١٠٣
العبادة	١٠٥
الأمانة	١٠٧
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	١١٠
العلماء ومسئولية الأمر بالمعروف	١١٣
العقاب للإنسان مسئولية	١٢٠

الفصل الرابع : حقيقة الإنسان بين المسئولية والتكريم :

الصلة بين التكريم والمسئولية	١٢٩
١ - التكريم في الخلق والتسوية	١٣٠
٢ - تكريم الله للإنسان بالعقل	١٣١
٣ - تكريم الله للإنسان بالحرية والاختيار	١٣١
٤ - تهيئة الحياة للإنسان	١٣٢
٥ - إرسال الرسل	١٣٢
كيف يحقق الإنسان إنسانيته	١٣٤
ونجيب على السؤال المطروح	١٣٩
تتمة ضرورية	١٤٢
وشبهة أخرى	١٤٥
الخاتمة	١٤٩

• المؤلف في سطور •

• دكتور أبو البزید أبو زید العجمی .

— من موالید محافظة الغربية سنة ١٩٤٢ م .

— تعلم في الأزهر حتى الثانوية الأزهرية .

— تخرج في كلية دار العلوم سنة ١٩٦٧ م .

— حصل على الماجستير والدكتوراه من كلية دار العلوم .

— يعمل أستاذاً مساعداً بقسم الفلسفة الإسلامية بالكلية .

• من مؤلفاته :

١ — فقه العقيدة عند أبي حنيفة ومالك .

٢ — فقه العقيدة عند الشافعي وأحمد .

٣ — الأخلاق بين العقل والنقل .

٤ — حقيقة الإنسان بين المسؤولية والتكريم .

• من تحقیقاته العلمية :

١ — الذريعة إلى مكارم الشريعة .

٢ — نجاة الخلف في اعتقاد السلف .

٣ — كتاب التوهم للمحاسبي .

٤ — فرائض الإسلام للحسن البصري .

هذا وللمؤلف إسهامات علمية في المجالات العلمية الجامعية والعامة .

• ظهر من هذه السلسلة حتى الآن •

١ — الانتهاء في ظل التشريع الإسلامي : للدكتور عبد الله مبروك النجار .

٢ — السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة : للدكتور عبد المهدي عبد القادر .

٣ — وباء الفتنة والتعصب وعلاجه في التوراة والإنجيل والقرآن :
للأستاذ السيد إبراهيم سليم

٤ — سعادة الأمة في العمل بالكتاب والسنة : (كبار علماء الجمعية الشرعية) .

٥ — المنهاج الكامل في بناء المسلم المعاصر : للدكتور فؤاد علي مخيمر .

٦ — الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة والمدينة : للأستاذ محمد مهدي عامر .

٧ — أهمية الصلاة في حياة المسلم : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .

٨ — في ميزان الإسلام (الجزء الأول) : للدكتور محمد رجب البيومي .

٩ — أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها : للدكتور محمد طلعت أبو صير .

١٠ — في ميزان الإسلام (الجزء الثاني) : للدكتور محمد رجب البيومي .

١١ — قبسات من نور الرسالة : للدكتور محمد أحمد علي سحلول .

١٢ — أخلاقنا : للدكتور محمد ربيع جوهري .

١٣ — التوازن النفسي والاجتماعي في الإسلام : للأستاذ رمضان الحسيني جمعة .

١٤ — الرسول صلى الله عليه وسلم في رمضان : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .

١٥ — الدوائر الدعائية المعادية للإسلام : للأستاذ حسن علي .

١٦ — الرسول صلى الله عليه وسلم — نشأته ودعوته : للدكتور إبراهيم علي أبو الخشب .

١٧ — لكي تعود خير أمة : للدكتور السيد رزق الطويل .

١٨ — القرآن يتحدث عن محمد عليه الصلاة والسلام : للدكتور محمد أحمد علي سحلول .

١٩ — منهاج الله في هداية البشر : للدكتور فؤاد علي مخيمر .

٢٠ — نحو منهج إسلامي في الفكر الإداري : للأستاذ أحمد عبد العظيم .

٢١ — الرسول صلى الله عليه وسلم حول الكعبة : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .

٢٢ — صفحات هادفة من التاريخ الإسلامي : للدكتور محمد رجب البيومي .

٢٣ — الإسلام وأهمية التيامن : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .

٢٤ — الإنسان في مرآة القرآن : للدكتور محمد أحمد علي سحلول .

- ٢٥- الرسول صلى الله عليه وسلم والوحى : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٢٦- مجالس العلم في حرم المسجد : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٨- من فيض القرآن : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب .
٢٨- نساء خاليدات : للأستاذ مأمون يس عبد الله .
٢٩- الدعوة في الإسلام عقيدة ومنهج : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٠- منهج القرآن في تربية الإنسان : للدكتور محمد عثمان مخيمر .
٣١- ردود إسلامية في قضايا معاصرة : للدكتور إبراهيم عوضين .
٣٢- الفتنة المعاصرة وموقف المسلمين منها : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٣٣- العقيدة في الإسلام منهج حياة : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٤- الصلاة في القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٣٥- حقيقة الإنسان بين المسئولية والتكريم : للدكتور أبو الزيد العجمى .

• تحت الطبع •

- ٣٦- هذه دعوتنا : للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٣٧- التفسير القرآنى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٣٨- في المحيط الإسلامى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٣٩- أنت تسأل والإسلام يجيب : للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٤٠- عبادة الصيام : للدكتور السيد رزق الطويل .
٤١- من منطلق إسلامى - ج ١ : للدكتور محمد رجب البيومى .
٤٢- عنصر الهداية في القرآن الكريم : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٤٣- الإسلام دعوة الحق : للدكتور السيد رزق الطويل .
٤٤- من منطلق إسلامى - ج ٢ : للدكتور محمد رجب البيومى .
٤٥- موسى واليهود : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٤٦- ملامح من هذا الدين : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٤٧- الرسول وقضايا المجتمع : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٤٨- طوبى للغرباء : للأستاذ رمضان الحسيني جمعة .

- ٤٩- الرسول والمواقفات : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٥٠- مع القصص القرآنى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٥١- اللسان العربى والإسلام معاً في مواجهة المعركة : للدكتور السيد رزق الطويل .
٥٢- من المثل الإسلامية : للدكتور محمد رجب البيومى .
٥٣- قبس من هدى الصلاة : للأستاذ على مرسى .
٥٤- نظرات في نظم الإسلام وثقافته : للدكتور مصطفى أحمد أبو سمك .
٥٥- مع الإمام البخارى في كتاب العلم من صحيحه : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٥٦- خصائص القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٥٧- الإسلام يتصدى لأباطيل المستشرقين والملحددين : للأستاذ سالى محمد شهاب .
٥٨- أخلاق إسلامية من القرآن والسنة : للدكتور الحسينى أبو فرحة .
٥٩- الإسلام وأحلام العصر : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .
٦٠- الإسلام دين الحياة : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .

رقم الإيداع : ١٩٨٨/٤٧٥٤

الترقيم الدولى : ٦ - ١٩٢ - ١٦٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة

هذا الكتاب منشور في

